المحددات الموضوعية لدور مصـــر
فى الوطن العربى

اعـــــداد

دكتور عصمت سيف الدولة

المحـــامى

ج . م . ع

المؤتمر الخامس عشر
لاتحاد المحامين العرب
تونس
٢ ــ ٥ نوفمبر ١٩٨٤

(٦)

(١)
مدخـــــل

ادوار ومصـــــــالح :

١ — لكل صاحب مصلحة راى فى دور مصر فى العالم العربى . الدور الذى ادته أو الدور الذى تؤديه أو الدور الذى عليها أن تؤديه أو الدور الذى لا ينبغى لها اداؤه . ويحاول كل قادر دفع مصر او جرها الى حيث يرى تحقيقا لمصلحته . البعض اتفاقا ، والبعض نفاقا ، والبعض تثبيطا ، والبعض توريطا ، والبعض حبا والبعض حربا .يجرى كل هذافى عصر قصرت فيه المسافات بين أقطار العالم ،

وامتدت فيه المصالح حتى أصبحت عالمية،واصبحت الحصانة دون التأثر بمايحدث فى أطراف الارض أو الكف عن التأثير فيه مستحيلا أويكاد أن يكون مستحيلا .ويجرى كل هذا فى ظل قوتين عالميتين متصارعتين على اقتسام الارض عنوة أو وفـــاقا . ويجرى كل هذا فى العالم العربى الذى تمزق دولا ، وسلب أرضا ، وتحول الى ساحة صراع بين المصالح والقوى العشائرية والطائفية والشعوبية والاقليمية والصهيونية والدولية . وهو صراع بارد حينا ، ملتهب حينا آخر لكنه فى كل حين مسلط على العقل العربى يحاول بالكلمات والنظريات والافكار والاداب والفنون ، بكل اغراء وبكل اغواء ، أن يصوغه فكرا ليسخره فعلا ، ليؤدى عنه طوعـــا ما تقصر عن أدائه وسائل الاكراه . ومن بين ما يصوغونه أفكار متباينة عن دور مصر فى العالم العربى .

فى هذا الواقع المعاصر تسند الى مصر أدوار متعددة بقدر تعـــدد القوى ، مختلفة بقدر اختلاف البواعث ، متناقضة بقدر تناقض المصالح ، مترددة فيما بين اقطاب لا تلتقى : فيما بين الحلم والعلم . فيما بين الممكن والمستحيل . فيما بين الماضى والمستقبل . ولا يصح فى الواقع او فى العقل اسناد كل تلك الادوار معا الى مصر الواحدة فى زمـــان واحـــد .

كما لا يجدى ، وقد لا يكون ممكنـــا ، تتبع الادوار التى قامت بها مصر فى العالم العربى مضمونا وتقييما لنستخلص منها معيارا واحدا للتقييم اذ لكل زمان احكام . وكل دور فى زمانه كان حصيلة مؤثرات ذاتية وموضوعية ، محلية وعربية ودولية لا يجوز تقييم مضمونه خارج اطارهـــا ، وهى بعد اكثر واخفى من أن تحصى وتعرف . ثم انه اذا صح ان التاريخ لا يعيد نفسه وان ثمة جديدا تحت الشمس كل يوم وان كل شىء مؤثر ومتأثر متحرك متغير ابدا ، وهو عندنا صحيح، فان قياس المستقبل على الماضى خطأ منهجى غير موثوق النتائج ، ذلك لانه يلغى دور البشر صناع المستقبل . ونحن نعتقد انه من العبث ان يدور حديث حول دور

دور البشر صناع المستقبل . ونحن نعتقد أنه من العبث يدور حديث حول دور ادته مصر فى العالم العربى لمجرد محاكمته الا ان يكون المتحدثون مؤوخين ولسنا منهم . انما المجدى أن يدور الحديث حول دور أو ادوار ادتها مصر فى العالم العربى كمصدر خبرة تاريخية قد تساعد على معرفة أو توقع الدور أو الادوار التى تؤديها مصر فى المستقبل . اذ المستقبل وحده هو المجال المفتوح لارادة الانسان .

كل هذا لا يعنى أن مصر قد اختارت كل الادوار التى اسندت اليها فى الماضى ، أو انها ستختار ما تشاء من ادوار تؤديها فى المستقبل ، أو حتى انها قادرة على اداء كل الادوار التى تختارها . ليست مصر أم الدنيا كما نحب أن نسميها تعبيرا مجازيا عن تقديرنا الكبير لها ، بل مصر جزء بسيط من هذه الدنيا المليئة بالامصار والادوار التى كثيرا ما الغت دور مصر أو حدت من مجاله أو حملت مصر على اداء ادوار فأدتها مرغمة .

لهذا كله لا نعتذر للذين يتوقعون ان يكون موضوع هذا الحديث ذلك الدور الذى اسند الى مصر فى العشر سنوات الاخيرة واسبابه وابطاله وآثاره التى هزت العالم العربى هزا واشاعت فيه اضطرابا مزلزلا أدى الى انهيار مفاهيم ونظم وقوى كانت تعتبر من الثوابت التى لا تنهار ، ومزق اواصر كان يظن انها لا تنفصم . لا . لن نتحدث عن هذا الدور أو عن أى دور غيره الا فى نطاق هذه المحددات وحدها — ان وجدت — تمكن معرفة الاجابات الصحيحة على كثير من الاسئلة التى تشغل العقل العربى عن دور مصر فى العالم العربى . لماذا أدت هذا الدور أو ذاك فى الماضى ؟ وما هو الدور المتوقع أن تؤديه فى المستقبل ؟ ولماذا يتغير دور مصر فى العالم العربى تغيرا حادا من حين الى حين ؟ ما هو الدور الذى ينبغى لها أن تؤديه ؟. وما هو الدور الذى تستطيع اداءه ، وما هو الدور الذى لا ينبغى لها اداؤه ولو استطاعت ؟ ثم أين ومتى وكيف ولماذا يكون دور مصر فى العالم العربى ؟.. الى آخره .

فلنبحث عن تلك المحددات فى تاريخ مصر أولا .

(٢)

المحدد الجغرافى

عن الماضى الاقليمى :

٢ — قبل أن توجد اية دولة فيما يسمى الان العالم العربى ، بل قبل أن توجد الدول جميعا ، كانت مصر موقعا جغرافيا يسمى مصرابيم . وكانت فيما بين الخليج والمحيط بمثابة واحة كبيرة من الارض الخصيبة ذات المناخ المعتدل يجرى

فيها الجزء الشمالى من النيل بدون عوائق أو مساقط موفرا لها اكبر قدر من انتظام أسباب الرى والزراعة والنقل والمواصلات . تطل على بحرين عند ملتقى قارتين ، فكانت ، مثل كثير من أودية الانهار ولكن بدرجة أفضل ، موطنا نموذجيا للحياة المستقرة على يسر النماء الزراعى والبناء الحضارى والتبادل التجارى مع ما حولها من أقاليم . فكانت بهذا كله ذات قوة جذب هائلة للجماعات القبلية الجائلة فيما يليها شرقا وغربا وجنوبا تغزوها أو تحاول أن تغزوها لا لتنهبها ثم ترتد عنها كشأن الغزاة فى العصور القبلية بل لتستولى عليها وتستقر فيها .

حينما غزتها الجماعات القبلية الوافدة من الشرق بقيادة من اطلق عليهم المصريون اسم « الملوك الاجانب » أو « حقا خاسوت » الذى حرف فى اللغة الاغريقية الى « هكسوس » ، عام ١٦٧٥ قبل الميلاد استولوا عليها واستقروا فيها قرنا (حتى عام ١٥٦٧ قبل الميلاد) وكانت منهم اسرتان حاكمتان هما الاسرة الخامسة عشرة والاسرة السادسة عشرة ، وثلاث عشرة ملكا فرعونا اولهم شسشى وآخرهم أبيبى الثالث .

حينما غزتها الجماعات القبلية الوافدة من الغرب من نسل يويو واوا الليبى عام ٧٥٠ قبل الميلاد استولوا عليها واستقروا فيها قرنين (حتى عام ١٧٣٠ قبل الميلاد) وكانت منهم اسرتان حاكمتان هما الاسرة الثانية والعشرون والاسرة الثالثة والعشرون ، واربع عشر ملكا فرعونا أولهم شاشانق الاول وآخرهم أوسركون الرابع .

وحينما غزتها الجماعات القبلية الوافدة من الجنوب عام ٧٥١ قبل الميلاد استولوا عليها واستقروا فيها قرنا (حتى عام ٦٥٦ قبل الميلاد) وكانت منهم أسرة حاكمة الى الاسرة الخامسة والعشرون ، وخمسة ملوك فراعنة : بعنجى وشاباكا وشبتاكا وطهرقا وتانون امانى .

وحينما غزتها التجمعات القبلية الوافدة من فارس تحت قيادة قمبيز عام ٥٢٥ قبل الميلاد استولوا عليها واستقروا فيها اكثر من قرن (حتى عام ٤٠٤ قبل الميلاد) وكانت منهم اسرة حاكمة هى الاسرة السابعة والعشرون وخمسة ملوك فراعنة أولهم قمبيز وآخرهم دارا الثانى . وبعد أن طردتهم ثورة قادها الفرعون آمون حر لم يلبثوا حتى عادوا اليها قبل أن يمضى نصف قرن فغزوها عام ٣٤١ قبل الميلاد واستولوا عليها واستقروا فيها قرنا آخر (حتى عام ٢٣٢ قبل الميلاد) وكانت منهم اسرة حاكمة هى الاسرة الحادية والثلاثون، ثلاثة ملوك فراعنة أولهم ارتخشاشا الثالث وآخرهم دارا الثالث .

ثم جاء البطالمة فاستقروا فيها ثلاثة قرون ، ثم الرومان فاستقروا فيها أربعة قرون ، ثم البيزنطيون فاستقروا فيها نحو قرنين ونصف قرن ثم العرب عام ٦٤٠ ميلادية فاستقروا فيها وتعربت جملة ولم تزل .

٣ — وهكذا فرضت جغرافية اقليم مصر على مصر مفهوما مصريا لامن مصر . أمن وجودها وحدودها وأمن مبادلاتها ومواصـــــلاتها . مؤداه : بما ان مصر — جغرافيا — ذات قوة جذب للغزاة من ناحية وبما انها توفر لمن يغزوهـــا أفضل أسباب الاستقرار فيها من ناحية ثانية ، فان المواقع المناسبة للدفـــاع عن مصر تقع خارج حدودها الجغرافية فى جميع الاتجاهات شرقا وغربا وجنوبا وشمالا . أو بصيغة أخرى أن خطوط الدفاع عن مصر تقع فيما يجـــاورها من اقاليم بعيدا عن حدودها . فيمكن القول ان جغرافية اقليم مصر وما يحيط بها من اقاليم قد فرضت على مصر ان تقوم فيما يحيط بها من أقاليم بدور دفـــاعى عن ذاتهـــــا .

٤ — ويكاد تاريخ مصر الفرعونية أن يكون تاريخا لهذا الدور . وأغلب ما عنى ملوك مصر الفراعنة بتسجيله حفرا على جدران المعابد هى قصص خروجهم الى جميع الاتجاهات لمواجهة التجمعات القبلية التى تجهز نفســـــها لغزو مصر وضربها ضربات وقائية مبكرة قبل ان تقترب منها .

أما فى الشمال فنقرأ على جدران معبد الكرنك انه بعد أن استطاع الفرعون احمس الاول (١٥٧٠ — ١٥٤٦ قبل الميلاد) طرد الهكســـوس من مصر طردهم من جزيرة كريت واراد ان يكرم جدته الملكة « اعج حوتب » للدور العظيم الذى قامت به فى تعبئة الجيوش وتحريضها على القتال فيسميها ملكة كريت . ونقرأ على جدران معبد الرمسيوم فى الاقصر ما أمر بحفره الفرعون رمسيس الثـــانى (١٢٩٠ — ١٢٢٣ قبل الميلاد) ثبتا للبلاد التابعة لمصر فنجـــد من بينهـــا قبرص وكريت .

أما فى الغرب فمنذ بداية التاريخ المكتوب تذكر الاثار ان فرعونا من الاسرة الثانية اسمه خع سخم أو حورس ، لا يعرف أحد تاريخ حكمه ، قد خرج من مصر لمقاتلة القبائل الليبية التى تهددها . وتحكى بردية سنوهى مأساة اغتيال الفرعون العظيم امنمحات (١٩٩١ — ١٩٦١ قبل الميلاد) فتقول ان اعـــداءه تمكنوا منه وقتلوه منتهزين فرصة غياب ابنه وولى عهده وقائد جيشه سنوسرت . اذ كان قد أرسله قائدا لحملة للقضاء على التجمعات القبلية التى تجهز نفسها لغزو مصر فى قواعدها فى ليبيا . وتحكى الاثار ان امنحوتب الاول فرعون مصر (١٥٤٦ — ١٥٢٦ قبل الميلاد) قد أرسل جيشا كبيرا بقيادة « احمس آبـــانا » الى ليبيـــا لتشتيت القبائل المتجمعة هناك تستعد للسير الى مصر . وعلى جـــدران معبد الكرنك يسجل الفرعون سيتى الاول (١٣٠٣ — ١٢٩٠ قبل الميلاد) قصة مثيرة عن خطر مزدوج المصدر من الشرق والغرب . فقد اجتـــــاحت الشرق قبـــائل هندو — اوربية فهاجرت قبائلها مطرودة بحرا ولجـــأت الى شـــــاطىء شمال افريقيا . فلما أن تجمعوا هناك تعرضوا لقوة جذب النماء والرخاء والاستقرار فى مصر فاتجهوا اليها فخرج اليهم الفرعون سيتى الاول وطاردهم .

وتشهد بقايا الاوانى الفخارية التى اكتشفت فى الخرطوم وغرب السودان

وفى قريتى البدارى فى صعيد مصر (أسيوط) ان علاقة مصر بالجنوب ترجع الى العصر النيوليتى (العصر الحجرى الحديث) اى الى ما قبل ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد . وعلى صخور جبل الشيخ سليمان على مقربة من بوهن امام وادى حلفا نقرأ نبأ وصول جيوش مصر بقيادة الملك الفرعون اتى الثانى من ملوك الاسرة الاولى لتأمين طرق التجارة مع الجنوب . ويحكى لنا الرحالة الفرعونى حرخوف فى تاريخ حياته المسطور على واجهة قبره فى اسوان انه صاحب حملة قادها ابوه الى الجنوب وانه قاد هو نفسه ثلاث حملات متتالية بأمر من الفرعون بيبى الاول (٢٤٠٢ — ٢٣٧٧ قبل الميلاد) . وبينما ذهبت الحملات الى بلاد لم يعرفها احد من قبل — كما قال — خصص قصة الحملة الثالثة التى تمت فى عهد بيبى الثانى لنبأ عثوره على قزم حى وابلاغه فرعون النبأ . ويورد رسالة الفرعون اليه ان « تعال الى الشمال . تعال سريعا الى القصر . واحضر معك هذا القزم الذى جئت به من أرض الارواح حيا سالما وفى صحة جيدة ليرقص للاله » . ولم يكن ذاك غريبا فقد كان بيبى الثانى طفلا . ولكن الفرعون الطفل قد أصبح فرعونا شابا فادرك أن دور مصر فى الجنوب ليس لهوا ولعبا بالاقزام بل مسألة حياة أو موت فمنه يجرى شريان مصر (النيل) فأرسل الى الجنوب قائده بيبى لنخت ليؤدى دورا آخر ذكره القائد فى سجل تاريخ حياته المحفور فقال : « أرسلنى جلالة مولاى لأؤدب بلاد ارثت فقمت بما جعل مولاى يثنى على وقتلت منهم عددا كبيرا ، من بينهم أبناء الزعماء ورؤساء المحاربين واحضرت منهم اسرى الى القصر . كان عددهم عظيما لانى كنت شجاعا ومعى جيش كبير من الجنود الاشداء . وحيث توجد كرمة فى السودان اسس امنمحات الاول (١٩٩١ — ١٩٦٢ قبل الميلاد) مركز للتجارة تحرسه قوة مرابطة فى حصن شيده فى سمنه جنوبى الشلال الثانى ثم توالت الحصون فأصبحت سبع عشر حصنا ترابط فيها قوات تحرس النيل وتدافع عن مصر عند خطوط على بعد مئات الكيلومترات من حدودها . ومع ذلك فليست العبرة بالسن دائما فما أن تتعرض حصون مصر وخطوط تجارتها فى الجنوب لخطر ناشىء حتى يخرج الى حيث موقع الخطر الفرعون الصغير امنحوتب الاول (١٥٤٦ — ١٥٢٦ قبل الميلاد) ويعيد الامن الى مصر بمعارك ناجحة فى السودان . أما الفرعون تحوتمس الاول (١٥٢٥ — ١٤٩٥ قبل الميلاد) فقد مد حدود حكمه الى السودان وعين حاكما له فرعونا اسماه « الابن الملكى لكوش » واصبح محرما على من هم جنوب تلك الحدود عبورها الى الشمال . وحينما حاول امراء قبائل كوش تحدى تلك الحدود هزموا واستقبل تحوتمس قادة جيوشه المنتصرة وكرمهم فى أسوان . ثم تحتمس الثالث (١٤٩٠ — ١٤٣٦ قبل الميلاد) الذى قاد بنفسه حملة الى السودان وبقى هناك سبعة أشهر يقاتل القبائل التى تهدد مصر وتجارتها ولم يعهد بذلك الى أحد من قواده بالرغم من أنه قد كان قارب السبعين من عمره . أما الفرعون امنوحتب الثالث (١٤٣٦ — ١٤١١ قبل الميلاد) فان تمثاله فى ترية النجعة على مقربة من شندى شمال الخرطوم شاهد على ابن كان يدافع عن مصر و .. الى آخرهم ..

أما عن الشرق فقد خرج الى الشرق قائدا منتصرا وعائدا الملك الفرعـــون ساحورع من الاسرة الخامسة (٢٥٥٣ ـــ ٢٥٣٩ قبل الميـــلاد) وبيبى الاول من الاسرة السادسة (٢٤٠٢ ـــ ٢٢٧٧ قبل الميلاد) الذى طاردت قواته بقيادة البطل العسكرى « ونى » التجمعات القبلية ثم دحرتها عند جبال الكرمل . وامنمحات الاول (١٩٩١ ـــ ١٩٦١ قبل الميلاد) من الاسرة الثـانية عشرة الذى أراد أن يحصن حدود مصر الشرقية نهائيا فبنى على طول الحدود سورا فرعونيا عظيما لم يصمد طويلا فاضطر احد خلفائه سنوسرت الثالث (١٨٧٩ ـــ ١٨٤١ ق٠م) ان يطهر كل شرقى البحر الابيض المتوسط وأن يترك هناك فصائل مقاتلة تجوب الشواطىء وتراقب الطرقات وتنذر مبكرا بأى مشروعات غزو لمصر . واحمس (١٥٧٠ ـــ ١٥٤٦ قبل الميلاد) يطرد الهكسوس من مصر ويتعلم من الجغرافيــا فيعلم انهم لن يكونوا قد خرجوا من مصر الا اذا خرجوا من فلسطين فيخرجهم منهــا .

فتعلم الجغرافيـــا فراعنة مصر ان هذا البعد لا يكفى فيـــأتى تحوتمس (١٤٩٠ ـــ ١٤٣٦ قبل الميلاد) وما أن يصل اليه نبأ وصـــول قوات قادش مدينة مجدو فى سورية حتى يعتبر ذلك اعتداء على حـــدود أمن مصر فيخـــرج اليهم ويقاتلهم ويدمرهم فى مدينة نوخاخش المجاورة لمكان حلب الحالية .

ويواصل حملاته دفاعا عن أمن مصر التى بلغت ستة عشرة حملة مطـــاردة اوصلته الى الفرات . ويفكر ذاك الفرعون العبقرى فيما سيصنعه التـــاريخ بعده بعشرات القرون . ان التـــآخى وليس القهـــر هو الذى يحفظ أمن مصر . فيجمع ابناء ملوك القبائل التى قهرها وأولياء العهـــود فيها ويحملهم الى مصر ويحشدهم مع ابنائه فى قصوره ويؤاخى بينهم ليتعلموا جميعا ان أمن مصر هو أمن جيرانها وانهـــا لا تغزوهم الا مضطرة فان تحالفوا على التعاون لرد المخاطر عنهم جميعا فهذا يكفى مصر أمنـــا . وقد كان . عـــاد أولياء العهود اخـــوة واصبحوا ملوكا وقادة وحالوا دون ان تكون مواطنهم مراكز تجمعات تهدد مصر فنعمت مصر بفترة طويلة نسبيا من الامن والهدوء والرخاء والتقدم الحضـــارى الذى تجـــاوز أمـــور الدنيا الى أمور الدين فانجبت امنوتحتب الرابع (١٣٧٠ ـــ ١٣٤٩ قبل الميلاد) الذى انهى عبادة آمون واشاد بعبادة آتون (الشمس) وحمل لقب اخناتون فكان اول الموحدين من فراعنة مصر . وفى عهده اكتمل مفهوم أمن مصر فهو ادراك لمواطن الخطر عليها فى مواقعه وليس عداء لمواطنى تلك المواقع . فحين تجمع على حدود مصر الشرقية جل مواطنى سورية وفلســـطين يريدون دخولها وتبين القائد الفرعونى حور محب ان جيوش ملكة خيتا قد غزت ديارهم وطردتهم وطاردتهم حتى حدود مصر فتح لهم الحدود وآوتهم مصر وعقدت معهم ما يمكن ان يسمى « معاهدة دفاع مشترك » فكونوا جيشا مشتركا خرج الى حيث مواقع الخطر المشترك وقضى على جيوش خيتا . فلما تحررت سورية وفلسطين أمنت مصر . وكانت تجربة علمت الجميع ما يمكن ان نســـميه المصير المشـــترك مدخرين تعبير وحدة المصير الى مرحلة تاريخية لاحقة . كذلك حين عادت جيوش

ملكة خينا الى الاستعداد لغزو مصر وجمعت له من استوردهم قائدهم المسمى موتللى من جند مرتزقة من سكان بحر ايجه (اليونان) وامارات آسيا الصغرى (تركيا) ، وخرج اليهم رمسيس الثانى (١٢٩٠ — ١٢٢٣ قبل الميلاد) كادت الدائرة تدور على جيش فرعون المصرى وفر كثير من جنده وباتت الهزيمة وشيكة واصبح مصير مصر ذاتها معلقا على نجده من الحلفاء ، فتقدم لنجدتها ألوف من شباب فلسطين مكونين تشكيلا عسكريا يطلق عليه فى الاثار اسم « ثيارونا » ويعنى « فرقة الشبيبة » ، وناصروا رمسيس الثانى فانتصر وانقذت مصر وفلسطين وسورية معا . وحينما بدأ الخطر الاشورى يدق أبواب سورية كرر المصريون والفلسطينيون التجربة الناجحة فشكلوا جيشا مشتركا بقيادة الفرعون المصرى تفت نخت (٧٣٠ — ٧٢٠ قبل الميلاد) وخرجوا معا فى هذه المرة للدفاع عن سورية دفاعا عن فلسطين ومصر ... وحين انهزموا استولى الاشوريين على سورية وفلسطين ومصر أيضا ...

١٣ — نستطيع ، بدون خسارة كبيرة ، أن نسقط من حديثنا عن دور مصر فى العالم العربى قرون الحكم البطلمى والرومانى والبيزنطى جميعا ، فخلالها جميعا الغى دور مصر واصبحت مجرد اداة تؤدى الدور الذى يختاره ايها من لهم السيطرة والحكم . ونصل الى الفتح العربى عام ٦٤٠ ميلادية .

١٤ — لم يكن غريبا ان يتم الفتح العربى لمصر بسهولة . ذلك لان البيزنطيين لم يتعلموا من الجغرافية ما تعلمه الفراعنة . فقد تم الفتح العربى لسورية عام ٦٣٦ ميلادية . وهو الانذار الذى ما كان أى فرعون مصرى يسمعه حتى يعبىء قواته ويخرج من مصر الى حيث تتجمع النذر لتؤدى مصر دور الدفاع عن ذاتها فى المواقع التى حددتها الجغرافيا . لم يفعل البيزنطيين هذا . بل تحصنوا فى نابليون جنوبى القاهرة وهم يسمعون نبأ دخول عمرو بن العاص على رأس أربعة آلاف مقاتل لا غير من العريش حتى الفرما (شرق بورسعيد حاليا) حتى بلبيس لتدور أول معركة بينهم فى عين شمس ضاحية القاهرة .. فطلب عمرو بن العاص مددا . وبينما عاد البيزنطيين الى حصن نابليون اجتاح عمرو بن العاص على مرأى ومسمع منهم الدلتا واخترقها واستولى على الفيوم ثم عاد شرقا فعبر النيل ليلتقى بالمدد الذى جاء وحاصر البيزنطيين فى حصنهم واستولى عليه بعد سبعة أشهر قبل أن يتوجه الى الاسكندرية العاصمة . فيعود البيزنطيون الى الخطأ ذاته . خطأ تصور امكان الدفاع عن مصر من داخل مصر . أورد الذين يتمكنون من دخولها فعلا . فيتحصنون فى الاسكندرية فيتركهم عمرو بن العاص محاصرين ويوجه قواته الى صعيد مصر فيفتحه . مات الامبراطور الغبى هرقل عام ٦٤١ والاسكندرية محاصرة . وخلفه كونستانز الثانى الذى تبين ان قد تم الفتح العربى لمصر منذ ان تم الفتح العربى لسورية وسبق السيف العزل فطلب الصلح فأبرم معه عمرو بن العاص اتفاقا منحه به فرصة عام للانسحاب من الاسكندرية . ولقد انسحب البيزنطيون فى نهاية العام (سبتمبر ٦٤٢) بعد أن حملوا معهم ما بقى بعد الذى اخرجوه فى سنة الهدنة ودخلها العرب بدون

(٦)

قتال ، مهلة العام هذه تكذب تكذيبا قاطعا ما قيل من ان العرب قد حرقوا مكتبة الاسكندرية . فالذين يحرقون عادة هم المنسحبون منها وليس المتقدمين اليها .

١٥ — على أى حال ، من بداية الفتح العربى ، وعلى مدى ثلاثين عاما فقط ، تؤدى مصر دور نقطة الانطلاق الى شمال افريقيا . أى حتى بنى عقبه بن نافع مدينة القيران لتصبح هى مركز التجمع وقاعدة الانطلاق الى ما يليها غربا .

(٣)

المحدد التاريخى

التكوين القومى :

١٦ — هنا يبدأ دور مصر فى التطور فيتغير نوعيا ابتداء من الفتح العربى. فبعد ستين سنة فقط تصبح اللغة العربية هى لغة مصر . ابتداء من عام ٧٠٦ على وجه التحديد . ويدخل الناس فى دين الله أفواجا . ويعفى التاريخ مصر مما فرضته الجغرافيا فلن تدافع عن ذاتها بعد ذلك . لقد اصبحت جزءا فى موقع القلب من الامبراطورية العربية الاسلامية . تحيط بها أقطار بعدها اقطار تباعد بينها وبين مسارح المعارك الضارية التى لم تنقطع على حدود الامبراطورية شرقا وشمالا وغربا . وطالما كانت القيادة المركزية فى دمشق او فى بغداد قادرة على الدفاع عن حدود الامبراطورية التى انتقلت اليها حدود مصر ، كانت مصر تؤدى دور الشريك فى الدفاع عن الدولة المشتركة . وقد بدأت فى اداء هذا الدور منذ وقت مبكر فى أول معركة حربية خاضها اسطول عربى ضد البيزنطيين فى عهد الخليفة عثمان بن عفان عام ٦٥٥ بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى السرح المعروفة بمعركة ذات الصوارى البحرية . الا انها قامت اساسا وعلى مدى قرون بدور المستقر الآمن الذى يجذب اليه بناة الحضارة من الفقهاء والعلماء والصناع، ودور القاعدة الآمنة التى تعبأ فيها الجيوش وتبنى فيها الاساطيل وتخزن فيها الامدادات ، المؤهلة بهذا كله لتصبح عاصمة آمنة للدولة العربية الاسلامية . وهو ما فطن اليه الفاطميون حين انطلقوا من اقصى الغرب يريدون الخلافة فما ان بلغوا مصر حتى شيدوا القاهرة واتخذوها عاصمة . وما اضطر اليه الخلفاء العباسيون بعد سقوط بغداد عام ١٢٥٨ فاتخذوا من مصر مقرا للرمز الباقى لوحدة الدولة .

اما حين تضعف السلطة المركزية فقد كانت مصر تعود الى دورها الدفاعى ولكن بصيغة صنعتها الجغرافيا والتاريخ معا . فهى لم تقم بالدفاع منفردة عن ذاتها منفردة ابدا ، بل موحدة القوة مع اكثر من قطر عربى آخر ، ومع سورية على الدوام . وقد بدأهذ ا الدور حينما غلب الترك الخلافة العباسية على أمرها. فلما أن بلغ هوان الخلفاء العباسيين أنه فيما بين عام ٨٤٧ وعام ٨٧٠ عين قادة الجيوش خمسة خلفاء قتلوا منهم أربعة : المتوكل والمستعين والمعتز والمهتدى

ومات خامسهم (المنتصر) بعد ستة أشهر من ولايته يقال مسموما ، استشعر احمدبن طولون حاكم مصر الخطر فتجاهل الخليفة المعتمد ووحد مصر وسورية عام ٨٧٧ . وحين تسقط الاسرة الطولونية ستعود مصر وسورية الى سلطة الخلافة ولكن موحدتين عام ٩٠٥ . وفيما عدا سنوات معدودات من الانفصال نتيجة انتقال الولاية من حاكم الى حاكم ستبقى مصر وسورية موحدتين نحو ستة قرون ونصف قرن أى من عام ٨٧٧ حتى الغزو العثمانى عام ١٥١٧ . وسنضم الحجاز واليمن الى هذه الوحدة تحت قيادة محمد بن طنج الاخشيد من عام ٩٢٥ حتى عام ٩٦٩ . ثم سينضم المغرب العربى الى مصر والشام والحجاز واليمن حين تصبح القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية ابتداء من عام ٩٦٩ حتى عام ١١٧١ أى لمدة قرنين . ويسقط حكم الاسرة الفاطمية وتعود الاسرة العباسية الى ولاية الخلافة على كل تلك الاقطار موحدة ابتداء من حكم صلاح الدين . وفى حكم صلاح الدين ومن بعده ما يستحق الانتباه .

اننا نحن العرب نحب أن نتذكر فنذكر صلاح الدين البطل العربى الذى لا يهزم . أولى بنا أن نعرف لماذا انتصر ولماذا انهزم ومادورمصر فى الحالتين . ونحن نعرف ان سورية قد انفصلت عن مصر على أثر وفاة السلطان نور الدين محمود . ولقد حاول صلاح الدين حاكم مصر ، بمصر وحدها ، ان يتحدى الصليبيين مرتين فانهزم فى المرتين . الاولى عام ١١٧١ والثانية عام ١١٧٣ . هزمه أقل ملوك الصليبيين شأنا حاكم امارة مونتريال الصليبية . وقد أدرك صلاح الدين أسباب الهزيمة فادرك اسباب النصر فظل يجهز للنصر اسبابه أربعة عشرة سنة . انطلق أولا الى دمشق وهناك هزم الملك الصالح بالقرب من حماه يوم ١٣ ابريل ١١٧٥ وصفى قلاع الحشاشين الطائفية المتناثرة فى سورية واعادها الى الوحدة . بعد هذا ، وليس قبله ، استطاع ان يتحدى الصليبيين فى معركة حطين بجيش عربى شاركت فيه مصر وقاده حاكمها صلاح الدين وليس بجيش مصرى ولو كان بقيادة صلاح الدين ، فحرر القدس يوم ٢ اكتوبر ١١٨٧ . ومن بعد صلاح الدين سيقود قطز حاكم مصر جيشا عربيا يهزم المغول فى معركة عين جالوت فى سبتمبر ١٢٦١ . وتصبح القاهرة ابتداء من العام التالى ولمدة ثلاثة قرون مقر الخلافة وعاصمة الدولة بعد أن سقطت بغداد عام ١٢٥٨ . وتؤدى مصر بكفاءة دور القاعدة والقائدة فى تحرير الوطن العربى من بقايا الامارات الصليبية . فيحرر الجيش العربى بقيادة الظاهر بيبرس الكرك وقيسارية وارسوف وصفد ويافا وانطاكيا ويحرر الجيش العربى بقيادة قلاوون اللاذقية وطرابلس . ويحرر الجيش العربى بقيادة خليل بن قلاوون عكا وصور وحيفا وبيروت . فينتهى الاغتصاب الصليبى عام ١٢٩١ .

١٨ — كل هذا يستحق الانتباه لانه مؤشر الى ما كان التاريخ يصنعه بمصر منذ الفتح العربى . لقد دخلت مصر بالفتح العربى طورا جديدا من تاريخها الطويل فخلقت من جديد . بدأ هذا الخلق التاريخى العظيم جنينا فى مجتمع المدينة بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام . وفى مجتمع المدينة نبتت بذرة الامة

(٦)

العربية . تحولت القبائل الى شعب . وتحول الاعراب الى عرب . واختصوا دون غيرهم بمدينتهم فأصبحت لهم وطنا . وانشأوا فيها دولتهم . اول حاكم لها محمد بن عبد الله . واول دستور لها « الصحيفة » التى أقامت نظاما عاما للعلاقات الداخلية والخارجية ملزما لكل المواطنين فيها مسلمين وغير مسلمين على أساس وحدة الدفاع عن الوطن الواحد .

ثم انطلق العرب بالاسلام الى ما يجاورهم فالتقوا واختلطوا بمجتمعات كانت قد تجاوزت الطور القبلى واستقرت شعوبا متجاورة ولكن السيطرة الفارسية والرومانية عليها جميعا قرونا عدة كانت قد اوقفت نموها فلم تتحول الى امم متجاورة . الحميريون فى جنوب الجزيرة العربية تحت السيطرة الحبشية ثم الفارسية منذ عام ٥٧٥ ميلادية حتى ظهور الاسلام . الغساسنة فى الجزء الشمالى الغربى وما يحيط بتدمر فى سورية تحت السيطرة البيزنطية منذ القرن الثالث الميلادى حتى ظهور الاسلام . القبائل الغربية من بنى لخم فى الجزء الشمالى الشرقى من الجزيرة فيما كان يعرف باسم « العراق العربى » تحت السيطرة الفارسية . كل الشعوب فيما بقى من سورية وفلسطين ثم مصر غربا حتى شاطىء المحيط الاطلسى مستقرة متجاورة على الارض عبيدا فيها بمعنى الكلمة للرومان منذ قرون عديدة ...

فجاء الفتح العربى الاسلامى ليحررهم جميعا ويرفع عنهم قيود العبودية أولا . ثم يلغى الحدود فيما بينهم ثانيا . ثم يقدم لهم لغة مشتركة ثالثا . ثم يعرض عليهم عقيدة أرقى من عقائدهم رابعا . ثم ينظم حياتهم جميعا طبقا لقواعد عامة واحدة (الشريعة الاسلامية) خامسا . ثم يتركهم قرونا فى حماية دولته ضد أى تهديد خارجى فيتفاعلون تفاعلا حرا فيما بينهم ، ومع الارض المشتركة قرونا متصلة بدون حدود أو سدود أو قيود على حرية الانتقال والمتاجرة والعمل والتعليم والتعلم سادسا . ثم يشركهم معا فى الدفاع عن حدود الدولة المشتركة ، وفى الجهاد من أجل العقيدة المشتركة حتى اذا ما اشتركت أربعة أجيال متعاقبة منهم فى الدفاع ضد الغزو الصليبى الذى استمر قرنا بعد خمسة قرون من الحياة المشتركة ، كان الشعب قد اصبح واحدا واصبح الوطن واحدا ، وارتفع بناء الحضارة الواحدة ، وتاهت الانساب ، واندثرت المواطن الاولى وانتشر البشر على اتساع الوطن الواحد فأصبحوا جميعا أمة عربية واحدة . ولم تعد مصر جارة للعالم العربى ، ولا حليفا فى الدفاع ضد الخطر المشترك ، ولا شريكا فى مصلحة عابرة ، بل أصبحت جزءا من الامة العربية التى صنعها التاريخ ولم يصنعها أحد على عينه .

١٩ — الامة العربية وجود موضوعى غير متوقف وجودا أو عدما على ارادة أحد . فمصر جزء من الامة العربية بدون توقف على ارادة أحد من مصر أو من غير مصر . كما أن العربى عربى ولو كره ذلك . هكذا تعلمنا من أساتذتنا الرواد . ثم اضفنا ان مجرد هذا الوجود القومى دليل موضوعى غير قابل للنقض

على أن ثمة روابط واسبابا موضوعية ، قد نعرفها وقد لا نعرفها ، توحد مصير الامة بحيث يكون من العبث الفاشل أن يحاول أى عربى أو جماعة عربية أو قطر عربى أن يفلت بمصيره الخاص من مصير أمته . سيفشـل حتمـا ولو فى المدى الطويل . روابط وأسباب موضوعية قد نعرفها اذا درسـنا تاريخنـا وواقعنا لنكتشفها لا لنختلقها ، فاذا لم ندرس فاننا نكتشفها — بسهولة — فى خلاصتها الحضارية . فى ذلك الشعور بالانتمـاء القومى الى الامة العربية الذى مايزال يحدد مواقف عشرات الملايين من العرب البسطاء الذين لم تتح لهم فرص التعليم والدراسة . ثم اننا نكتشفها كل يوم من مواقف غيرنا منا . فنحن عندهم عـرب بصرف النظر عن اقطارنا سواء كانوا اعداء لنا أم حلفاء واصدقاء ، وسواء أعجب هذا الانتماء أحدا منا أم لم يعجبه .

لقد كنا نقول هذا ونردده ونبشر به وندافع عنه على مدى نحو ربع قرن فى كتب منشورة ابتداء من عام ١٩٦٥ . وما كان يجرؤ على انكاره الا القليل يوم أن كانت مصر تؤدى دورها المنتصر كقاعـدة وقائـدة ورائـدة تحت راية عبد الناصر .ومن فوق قمة النصر فى فبراير ١٩٥٨ لم ينسب عبد الناصر النصر الى مصر بل نسبه الى الامة العربية . سئل عما يتوقع ان يحدث للعرب لو أنه مات فقال لسـائله :

« هل تظن اننى أنا الذى خلقت القومية العربية ؟.. ابدا . ان القومية العربية هى التى خلقتنى . لست أنا الذى أثيرها بل هى التى تحملنى . انها قوة هائلة ولست أنا الا اداتها . ولو لم أكن موجودا لوجدت واحدا ، عشرة ، الفـا غيرى يحلون محلى . ان القومية العربية لا يمثلها رجل واحد أو مجموعـة من الرجال ، انها لا تتوقف على جمال عبد الناصر ولا على الذين يعملون معه . انها قوة كامنة فى ملايين العرب الذين يحمل كل منهم شعلة القومية . انها تيار جارف، ولا تستطيع اية قوة فى العالم ولن تسـتطيع تحطيمها طالمـا احتفظت بالثقة فى ذاتهـا » .

نعم . طالما احتفظت بالثقة فى ذاتها . هكذا قال عبد الناصر رحمه الله .

ولكن كثيرين كانوا لا يثقون فى القومية العربية بالرغم مما كان يقول حكام العرب فى التاريخ تجربة وأغناهم خبرة بدور مصر فى العالم العربى . بل كانوا يرجعون الالتقاء تحت الراية المنتصرة الى جاذبية النصر ذاته بدون أن يتوقفوا للرد على السؤال : ولماذا لا يلتقى العـرب تحت راية منتصرة الا أن تكـون راية عربية ، ومن حولهم أمم كثيرة انتصرت فلم يلتقوا تحت رايتها ؟ على أى حال لقد قدم التاريخ الدليل الحاسم على وحدة المصير من الردة فالقطيعة فالعزلة فالعداء بين مصر السادات والعالم العربى فما الذى جرى ؟. لا أحد ينكر الان ما جرى لا فى مصر ولا فى باقى العالم العربى .

حينما تكف مصر عن اداء دور الجزء من الامة العربية تتقلص الى حد الشلل مقدرة بقية الاجزاء عن اداء ادوارها فتتقلص الى حد الشلل مقدرة مصر ذاتهـا

على أن تؤدى الدور الذى اختارته ، فتكاد تنهار كل القوى فى العالم العربى بما فيها مصر . المسألة — اذن — ليست مسألة قيادة فذة وقيادة شاذة ، ولا مسألة انتصار أو انكسار ، بل هناك تحت جلد العالم العربى شبكة من الروابط الموضوعية التاريخية التى تقاوم تجزئة الامة الواحدة ، وتحافظ على وحدتها ، وتوحد مصريرها ، وتعلم من لا يريد أن يتعلم ان غاية شرود الجزء من الكل الفشل والشلل للاجزاء جميعا .

٢٠ — فى قلب هذا الوجود القومى يعيش ثلث الشعب العربى فى مصر ، وتختزن فيها انضج عناصر الحضارة العربية الاسلامية من العلوم والاداب والفنون والخبرة المتراكمة اقتصاديا وسياسيا وتتمتع بأكبر قدر من التجانس الاجتماعى بفضل احتضان الامة العربية لها وحمايتها من آثار التخريب العشائرى والطائفى الذى احدثته الاعتداءات الشعوبية على أطراف الامة العربية . فهى القاعدة لاية تعبئة قومية . وهى القائدة لاية مسيرة قومية . وهى الرائدة لاية نهضة قومية . وهى كما وصفها بحق الاديب المؤرخ الفرنسى بنوا ميشان فى كتابه « الازدهار العربى » بانها « مخ العرب » . الذى يتلقى من كل أعضاء الجسم ما تحسه وتعانيه فيدرك . ويوجه أعضاء الجسم فيستجيب . أعجبنى هذا التشبيه لان المخ بدون أعضاء فى جسم واحد قطعة من اللحم الرخو سريع التلف . كما أن الاعضاء فى جسم واحد تختل حركاتها وتطيش وقد تهلك اذا ما فقد المخ ملكة الادراك السليم أو « غسله » احد من تراثه وحشاه فكرا غريبا عن تكوين الاطراف .

٢١ — هكذا سيكون دور مصر فى العالم العربى منذ صلاح الدين حتى أواخر القرن التاسع عشر ، لن تتأثر كثيرا بتنازع الاسر على تولى الخلافة . فقد بقيت تردى دورها كجزء من الامة العربية وولاية الخلافة للاسرة الفاطمية ثم العباسية. ثم العثمانية . انتهت ولاية الخلفاء الفاطميين فى مصر ظهر يوم جمعة . مع المصلون خطباء المساجد يدعون للخليفة العباسى بدلا من الخليفة الفاطمى بأمر من صلاح الدين فانتهى الامر . وحين تولت الاسرة العثمانية الخلافة بعد هزيمة الجيش العربى فى معركة مرج دابق يوم ١٢ أغسطس ١٥١٦ ودخول مصر فى يناير ١٥١٧ وعزل الخليفة العباسى لم يتغير شىء من مصر . اكتفى العثمانيون بأن يحصلوا على ربع حصيلة الضرائب ، وبأن يولوا الولاة لجبايتها . وبعد أربعة قرون ثم يتركوا بها أثرا سوى مسجدين مفرطين فى تواضع العمارة أحدهما مسجد السنانية فى بولاق الذى بناه سنان باشا عام ١٥٧١ والاخر مسجد أبو الدهب الذى انشىء عام ١٧٧٤ . ثم انهم فصلوا ادارة سورية عن ادارة مصر لاول مرة بعد ستة قرون ونصف قرن . ولكنهم لم يستطيعوا أن يعزلوا مصر عن الامة العربية . ولم يقبل الشعب العربى فى مصر حتى الفواصل الادارية . فما أن يتولى الامر فيها حاكم قادر حتى يلغى تلك الفواصل وينزع نزوعا يكاد يكون غريزيا الى الوحدة العربية . وما هى الا استجابة لروابط موضوعية تشد أجزاء الامة الواحدة بعضها الى بعض . هكذا حاول أن يفعل على بك الكبير عام

١٧٦٨ . وهكذا حاول أن يفعل محمد على ابتداء من ١٨١٥ . وهكذا ستكون مصر مأوى الاحرار الهاربين اليها من القهر الطورانى حينما يستولى الترك على الدولة فيحولونها من دولة مشتركة الى دولة مسيطرة فيأتى رد الفعل العربى متدرجا من اللامركزية الى الانفصال والوحدة .

(٤)

محددان لدور مصر

الواقع الدولى :

٢٢ — وهكذا نستطيع أن نقول انه بصرف النظر عن الامال والالام ، عن الرغبات والمتغيرات ، عن الحكام والمحكومين ثمة محددان موضوعيان ثابتان نسبيا لدور مصر فى العالم العربى . أولهما محدد جغرافى اقليمى والاخر محدد تاريخى قومى . لقد تواليا عليها تاريخيا . اسبقهما المحدد الجغرافى الاقليمى . وهما متناقضان ، اذ يحدد كل منهما لمصر دورا فى العالم العربى مختلف المدى والمضمون والبواعث والاسلوب والادارة . ولقد توقف الدوران كلاهما عام ١٨٨٢ بالاحتلال البريطانى واصبحت مصر واقعيا — لا رسميا — اداة تؤدى بها بريطانيا الدور الذى تريده فى العالم العربى أو فى تأمين مواصلاتها الى مستعمراتها فيما يلى العالم العربى شرقا .

٢٣ — ولكن الامر سكحسم بعد نهاية الحرب الاوربية الاولى وتقسيم الامة العربية الى دول بفعل الاستعمار الاوربى . حسم بعد تمهيد طويل ومراحل متتابعة . أسبقها مرحلة الامتيازات الاجنبية التى حصلت عليها الدول الاوربية من سلاطين بنى عثمان . فرنسا عام ١٥٣٥ . انجلترا عام ١٥٧٩ . هولندا عام ١٥٩٨ . روسيا عام ١٧٠٠ . السويد عام ١٧٣٧ . نابولى عام ١٧٤٠ . الدانمرك عام ١٧٥٦ . بروسيا عام ١٧٩٧ . اسبانيا عام ١٧٨٢ . الولايات المتحدة الامريكية عام ١٨٣٠ . بلجيكا عام ١٨٣٨ . البرتغال عام ١٨٤٨ . واليونان عام ١٨٥٤ ، فانتقص من سيادة الشعب على وطنه بقدر ما حصلت عليه كل من تلك الدولة من سلطة مباشرة على رعاياها فى الارض العربية . المرحلة الثانية مرحلة الاقتطاع من جسم الامة العربية والاحتلال احتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ وتونس عام ١٨٨١ واحتلت انجلترا جنوب الجزيرة العربية عام ١٨٣٨ والاحساء عام ١٨٧١ ومصر عام ١٨٨٢ والسودان عام ١٨٨٩ ومسقط عام ١٨٩٢ والكويت عام ١٨٩٩ ... الى آخره . المرحلة الاخيرة بعد الحرب الاوربية الاولى فاصبح كل قطر دولة مستقلة عن الدول الاخرى واصبحت مصر دولة مستقلة عن الدول العربية واصبح العالم العربى دولا متجاورة ، ولم يكن ذلك محددا جديدا لدور مصر فى العالم بل كان تقنينا دوليا لذات المحدد الجغرافى الاقليمى لدور مصر كما مارسته منذبدء التاريخ حتى الفتح العربى .

٢٤ — من الجوهرى وقد وصل بنا الحديث الى ما نحن عليه أن نلتفت الى حقيقة لا يجوز أبدا أن تغيب عن الانتباه ونحن نخصص الحديث لـدور مصر فى العالم العربى . ان كل ما سنقوله ينطبق على كل دولة عربية . ان يكن التقسيم الدولى قد وقع على جسم الامة العربية الواحدة فتحولت مصر الجزء الى دولة فان كل دولة عربية كانت قبل الاقتطاع أو التقسيم جزءا من الامـة العربية ثم أصبحت دولة . وان كانت دولة مصر قد قننت المحدد الجغرافى الاقليمى لدور مصر كما مارسته منذ بدء التاريخ حتى الفتح العربى . فان كل دولة عربية قد قننت المحدد الجغرافى الاقليمى لدورها منذ بدء تاريخها حتى الفتح العربى . وان كان لمصر دور فى العالم العربى من حيث هى دول متجاورة فان لكل دولة عربية دورا فى العالم العربى من حيث هى دول متجاورة . وان كانت مصر تعانى من التناقض بين المحدد الجغرافى الاقليمى لدورها فى العالم العربى وبين المحدد التاريخى القومى لهذا الدور فان كل دولة عربية لابد معانية هذا التناقض . كلنا فى هذا عرب وانما نختلف درجات فى المعاناة وفى المقدرة على مغالبتها . واخيرا ، فان دولة مصر ما كان يمكن أن تكون مستقلة عن دول العالم العربى الا لان دول العـالم العربى مستقلة عنها اذ الاستقلال علاقة ذات أطراف متعددة .

اذن ، ان كنا سنكمل حديثنا عن دور مصر فى العالم العربى ومحدداته ، فنرجوا أن يكون مفهوما أننا نتكلم عن دور كل دولة عربية ومحدداته بدون اخلال باختلاف مضامين الادوار والتفاوت فى المقدرة على ادائها . ثم نرجو الا ينزعج احد كثيرا اذا تحدثنا عن المحدد الجغرافى الاقليمى لدور مصر الدولة وآثاره كما لو كان هو وحده الذى يحدد دور مصر . لا . ان المحدد التاريخى القومى مايزال يغالبه فى تحديد هذا الدور . انما نريد أن نعرض لدور دولة مصر كما يلده المحدد الجغرافى الاقليمى عاريا ، حتى لا ينخدع أحد ممن يريدون تنبيه أو يزعم أن أحدا قـد خدعـه .

دولـة مصر :

٢٥ — التقنين الدولى الواقعى للمحدد الجغـرافى الاقليمى هو أن مصر دولة . والدولة — كما هو معروف — مؤسسة من عناصر ثلاثة : الشعب والاقليم والسيادة . نعنى سيادة الشعب على اقليمه . وقد يعبر عن عنصر السـيادة فى بعض كتب فقه القانون بكلمة « السلطة » وهو تعبير غير دقيق . اذ السلطة هى استعمال السيادة وليست السيادة ذاتها . مثلها مثل حق الانتفاع الذى هـو استعمال لحق الملكيـة وليس الملكية ذاتها . والفـارق بينهما أن السيادة لا تنتقل ولكن السلطة تنتقل . فبينما تبقى السيادة لصيقة بالشعب لا تفارقه ولا تنتقل الى غيره ، قد يعهد الشعب بممارستها الى من ينوب عنه فتصبح ممارستها « سلطة » . وقد أصبح تقليديا فى أغلب الدول ومنذ القرن الثامن عشر ان تمارس السلطة بواسطة من مؤسسات للتشريع والتنفيذ والقضاء ، تتبع كلا منها أجهزة تنفيذية ذات وظائف نوعية مختلفة يقوم عليها موظفون معينون . كما اصبح تقليديا فى أغلب دول العالم أن تجرى ممارسة السلطات داخل الدولة طبقا لقواعد عامة،

مكتوبة أو غير مكتوبة ملزمة للكافة من أول الدستور ، أو القانون الاساسى ، الى القوانين ، الى اللوائح ، الى الاوامر الادارية . تحرس قوتها الملزمة وتحمل الناس على الالتزام بها قوة ردع مسلحة من الشرطة والمحاكم والسجون والمشانق . وفيما بين حدى الوظيفة والردع يسهم كل قائم على وظيفة فى أى جهاز تابع لاية مؤسسة من مؤسسات الدولة ، اسهاما مباشرا أو غير مباشر ، كبيرا أو ضئيلا ، ظاهرا أو خفيا ، فى تحديد الدور الذى تقوم به هذه المؤسسة الهائلة المنظمة المعقدة التى اسمها الدولة .

ومصر دولة :

ان هذا المحدد الجغرافى الاقليمى المقنن لا يسمح بأن يسند الى مصر او يطلب منها دور لا تؤديه الدولة . وان هذا لعلى اكبر قدر من الاهمية خاصة بالنسبة الى الحديث العربى عن دور مصر فى العالم العربى . ذلك لانه لاسباب مشروعة تاريخيا ومصيريا عرفناها كثيرا ما يدور الحديث ، وتبنى الآمال ، على دور لمصر فى العالم العربى على أساس محدد بأحد عناصر دولتها ، فهو الدور الذى يتناسب مع كثافة شعب مصر الذى يبلغ ثلث مواطنى العالم العربى . أو هو الدور الذى يتناسب مع موقع اقليم مصر فى قلب العالم العربى وملتقى مشرقه ومغربه . أو هو الدور الذى يتناسب مع حجم التراكم الحضارى الذى حققه شعب مصر فى ميادين الفكر والعلم والفن والاقتصاد والسياسة . . . الى آخره . فيبقى الحديث مجرد تعبير عن دور مأمول غير قابل للتحقق ، وتؤدى خيبة الآمال، أو كثيرا ما تؤدى ، الى الغضب أو اليأس بدلا من أن تكون حافزا على مراجعة الرؤى أو الرؤية . ويبقى الواقع كما هو : فى مصر لا تتحول الامال الى واقع ، ولا تتحول البواعث الى حركة ، ولا تتحول الافكار الى ادوار الا بعد ان تمر بامعاء تلك المؤسسة الهائلة المنظمة المعقدة التى اسمها دولة مصر فتهضمها ، فاما أن تتمثلها فتتحول الى قوة محركة الى دور معين وأما أن تلفظها .

قد يقال ان دولة مصر هى — فى التحليل الاخير — مؤسسة الشعب فيها . وانه اذا ما أراد الشعب لدولته ان تقوم بدور معين فى العالم العربى ، أو فى غير العالم العربى ، حملها على ادائه فأدته .

هذا القول ليس صحيحا على اطلاقه . انه أبسط من أن يكون واقعيا .

ان الشعب فى مصر عنصر من عناصر دولة مصر . لا هو خارجها ولا هو فوقها . ولا هى مجرد اداة يؤدى بها الدور الذى يشاء على ما يريد . بل ان الدولة هى التى تفرض على الشعب ، من حيث هى واقع موضوعى ثابت نسبيا، حدود ما يمكن أن يتحقق مما يريد ، والدور الذى يمكن أن يؤديه فيها وبها . حد ثابت — مثلا — من عناصر اقليمها فليس له أن يتنازل عن شبر واحد منه لانه ملكية تاريخية مشتركة بين الاجيال المتتابعة ، وليس له ان يضيف اليه ما لا سيادة له عليه . وحد ثابت — مثلا آخر — من عنصر السيادة فليس له ان يفرط فى جزء منها وليس له أن يمدها الى ما يتجاوز حدود مصر اقليما وشعبا . من يفرط يودع فى الداخل ومن يتجاوز يمنع من الخارج .

انما قد يصدق ما يقال على العلاقة بين الشعب صاحب السيادة والقائمين على ممارستها نيابة عنه فيما يسمى « السلطة » ، أى على العلاقة بين الشعب والحكومة بمعناها الواسع . بعد أن نسلم بأن هذه علاقـــة قائمة داخل الدولة لا خارجها ولا فوقها نستطيع أن نسلم بسهولة بأن الشعب اذا اراد يســـتطيع أن يحمل حكومته ــ بالاسلوب المناسب ــ على أن تؤدى الدور الذى يريد لدولته أن تؤديه فى العالم العربى ، ولو أدى ذلك الى تغيير النظام كلهفى الدولة من أول الدستور الاسمى الى أدنى القرارات الادارية . ولكن حينما يقوم الشعب بهذا فهو يغير نظام الدولة ولا يغير الدولة . يتغير النظام بالارادة الشـــعبية وتبقى الدولة لا تتغير ولو اراد شعبها . وهذا يعنى ما نرجو أن يكون محل انتباه دقيق . انه حتى لو أراد شعب مصر ان تؤدى مصر فى العـــالم العربى دورا غير الذى تؤديه فحمل حكومته على ادائه ، أو استبدل بها حكومة اخرى ، أو غير نظـــام الدولة جملة ، فان هذا الدور لن يؤدى الا من خلال « دولة » مصر وبالتـــالى لن يتحقق منه الا ذاك القدر الذى تسمح به طبيعة الدولة كتقنين لمحدد واقعى ثابت نسبيا . وعلى من يشك فى هذا ان يتأمل ما جرى ويجـــرى فى بعض الاقطـــار العربية . حيث فى الطريق من المنطلق القومى الى دولة الوحدة اســـتطاع بعض القوميين الوحدويين أن يصبحـــوا حكـــاما . فما الذى حدث ؟ شـــلت الدولة الاقليمية خطى حكامها القوميين وبدلا من أن يتقدموا الى الغاء حدود التجزئة ذهبوا يتفقدون حدود دولهم ، فاصبحوا ــ بالرغم من حسن النوايا وتأييد الجماهير فى البداية ــ حكاما اقليميين .

٢٦ ــ المرجع اذن لمعرفة دور مصر فى العالم العربى هو دولة مصر . فكيف يتحدد دور مصر فى دولة مصر ؟ اننا نقترب بهذا السؤال من عقدة موضوعنا الذى لم تكن التعقيدات السابقة الا مقدمة له أو مدخلا اليه .

لقد عرفنا ما يعرفه الكافة من أن دولة مصر ــ كأية دولة ــ مؤسسة مركبة من عناصر ثلاثة : الشعب والاقليم والسيادة . وعرفنـــا ان الاقليم والســـيادة حدان ثابتان نسبيالاينبغى لارادةالشعب فى الدولة أنتتجاوزها أو تتخلى عنهما . فى نطاق هذين الحدين هل تترك الدولة للشعب مهمة تحديد الدور الذى تؤديه فى العالم العربى أو فى غير العالم العربى ؟.. أو بصيغة أخرى ما مدى صحـــة اسناد الدور الذى تقوم به الدولة الى الشعب ؟.. ترجع اهمية هذا السؤال الى انه لو صح أن الشعب هو صاحب القرار الاخير فى تحديد الدور الذى تقوم به الدولة لتحمل كل شعب مسئولية الاثار التى يحدثها هذا الدور من ناحيـــة ، ولكان الموقف من أى دور تقوم به الدولة قبولا أو رفضا أو عداء هو موقف قبول أو رفض أو عداء من الشعب نفسه من ناحية ثانية ، ولكان من الافضل تجاهل الدولة والتعامل مباشرة مع الشعب من ناحية ثالثة . ولان الســـؤال مهم فيما نعتقد سنحاول أن نجيب عليه اجابة قاطعة وذلك بافتراض انه لا توجد أية قيود على حرية الشعب فى التعبير عن ارادته واختيار القائمين على السلطة فى دولته .

٢٧ ــ يبلغ الشعب فى مصر نحو خمســـة واربعين مليونـــا عددا . وهم

مختلفون سنا وعقلا وفكرا ووعيا ومصالح ونوازع . ولم يحدث ابدا ، وليس من المتوقع أن يحدث أن يســـــأل كل منهم على حدة عن الدور الذى يريد لمصر أن تؤديه فى الوطن العربى أو أى دور آخر . ولو سئلوا لاختلفوا فيه ، فتأخذ مصر — مثل أغلبية الدول فى العالم المعاصر — فى التعرف على ما يسمى ارادة الشـــعب بتلك الحيلة التى ابتكرها الليبراليون الاوربيون فى القرن السابع عشر والتى قال عنها الفقيه الفرنسى كاريه دى ملبرج انها اخترعت اختراعا لحرمان الشـــعب من سيادته . نعنى التمثيل النيابى . تأخذ الدولة فى مصر ربع الشعب أو ما يزيد قليلا عن عشرة ملايين وتعطيهم وحدهم الحق فى المشاركة فى تحديــــد الدور أو الادوار التى تقوم بها الدولة وتستبعد باقى الشعب . ثم تدعـــوا اولئك الملايين العشرة من حين الى حين (المفروض كل خمس سنوات) الى أن ينتخبوا من بينهم عددا لا يزيد عن ٤٠٠ ليمثلوهم فى ادارة الدولة ومنها تحديد الدور الذى تقوم به مصر فى العالم العربى مثلا . ثم تستبعد الباقين . فمنهم من يلبى الدعوة ويختار ومنهم من يمتنع . ولم يحدث أن تجـــاوزت نسبة الملبين المشـــــاركين فى عملية الانتخاب ٣٠٪ (ثلاثين فى المائة) من عدد الناخبين .

عندما يجتمع أولئك النواب ليجيبوا على السؤال : ماهو دور مصر فى الوطن العربى قد يختلفون . فان اختلفوا فالدور الذى ســــــتؤديه مصر ، كما صاغته الدولة ، هو رأى أغلبية الحاضرين أى نحو مائتى مواطن . ولكن اجهزة الدولة كلها ستعلن أن ذلك هو الدور الذى حدده شعب مصر لدولتها بارادته الحره من خلال مؤسساته الدستورية بأسلوبه الديمقراطى المتحضر . وستقرها على ذلك كل الدول فى العالم العربى ، أو فى العالم كافة ، التى تأخذ فى التعرف على ارادة شعوبها بتلك الحيلة النيابية . وهكذا تدعم الدولة ما تفرضه على ارادة الشعب من حدى الاقليم والسيادة أو تحافظ عليها ضد الارادة الشعبية بمســـخها راى الشعب فى رأى الاقلية . الواقع انهـــا اقلية اقلية اقلية الاقلية التى تصوغ فعلا الدور الذى تقوم به دولة مصر فى العالم العربى وكل دور آخر .

٢٨ — ونذكر فنقول ان مصر فى كل هذا ليســـت الا مثلا من دولة حديثة لكل الدول الحديثة . بما فيها دول العالم العربى ذاته . فى هذا العصر لاتوجد شعوب خارج اقفاص الدول . حتى الذين فقدوا دولتهم يتطلعون اليها أو يقـــاتلون من أجل استردادها من نوافذ اقفاص الدول المضيفة أو الدول الحليفة . انه عصر الدول ذات الشعوب وليس عصر الشعوب ذات الدول . سواء أعجبنا هذا أم لم يعجبنا . وحتى لو صدق فى الدول ماقاله نبتشه من « ان الدولة اكثر صفاقه من أى صفيق . . انها تكذب بصفاقة وتقول انا الشعب . وكل ما تقوله كذب . وكل ما تملكه سرقه . وكل شىء فيها زائف » . انها — على أى حال — أقل صفــــاقة وكذبا وزيفا من حـــاكم فرد يقول انا الشــــعب ويكذب ويسرق وان كانت ارادة الشعب الضحية غائبة فى الحالتين .

٢٩ — وتتميز الدولة بأن خارج مؤسساتها لا يبقى الشعب راكدا بل هو

يلمس ويراقب وينقد أو يؤيد الدور الذى تؤديه الدولة والذى يتحمل هو عائده النهائى مكسبا أو خسارة ، نصرا أو هزيمة ، تقدما أو تخلفا . ويلعب المثقفون والمتعلمون والكتاب والصحافة وأجهزة الاعلام المرئى والمسموع والشائعات « والنكت » ادوارا مؤثرة — بالغة التأثير — فى تكوين ما يسمى الرأى العام الشعبى الذى لا يكف عن التفاعل مع الرأى الخاص الحكومى متأثرا به مؤثرا فيه على وجه تتوقف حصيلته على قوة التأثير النسبية بين طرفيه العام والخاص . وفى هذا تفترق الدول . وتنتمى مصر الى مجموعة دول العالم الثالث ، أى النامى ، أو المتخلف حيث لا شبهة فى أن الحكومات تملك من ادوات التأثير فى الرأى الشعبى العام ما هو اقوى بمراحل مما تملكه الشعوب من أدوات التأثير فى الرأى الحكومى الخاص . مع الاعتراف بهذا ، لا يمكن انكار ان الرأى العام فى مصر يملك قوة تأثير لا تملكها الا قلة قليلة من شعوب العالم الثالث . وراء ذلك اسباب تاريخية وحضارية وعلمية وخبرات متراكمة من التعامل مع مختلف أنواع الحكام ومختلف نظم الحكم . وقد لفتتنا دراسة تاريخية الى خاصية قد تكون ذات علاقة بما تعلمه من النيل وواديه الخصيب . الصبر على النيل حتى يفيض وينحسر ثم يزرع ، والصبر على الزرع حتى ينمو ويثمر ثم يحصد . اعتقد ان ذلك قد علمه ان يغالب رغباته حتى لا يفصل بين حركته وبين وقتها المناسب . وهكذا فهمنا لماذا يقوم كل جيل من شعب مصر بثورة بالرغم من الا علاقة وثيقة بين اسباب الثورات وتوالى الاجيال . جيل احمد عرابى عام ١٨٨٢ . جيل مصطفى كامل عام ١٩٠٧ . جيل سعد زغلول عام ١٩١٩ . جيل احمد حسين وفتحى رضوان عام ١٩٣٥ ثم جيل عبد الناصر عام ١٩٥٢ ... ولماذا يبدو فيما بين ثوراته لامباليا . قد نكون التفتنا الى ما رغبنا لالتفات اليه ، وقد نكون أخطأنا فهم التاريخ ، ولكن كل هذا لا يهم .

المهم هو أن الشعب فى مصر غير راكد وان فى مصر رأيا عاما يحيط بمؤسسات الدولة بعضه مطبوع وبعضه مصنوع ولكنه على حاليه يؤثر فى صياغة الدور الذى تقوم به دولة مصر فى العالم العربى . وهو دور محل خلاف كبير بحكم التفاوت الكبير فى درجات الوعى الشعبى وبحكم التعارض الكبير بين مصالح الافراد والجماعات . ولكن هذا الخلف ينصب على ماهية الدور الذى تقوم به مصر فى العالم العربى . أما عن مبرره فهو واحد لدى كل المختلفين المنطلقين اليه من أن مصر دولة .

نضرب مثلا مما قاله عالم دارس جاد من مصر التى يحبها حبا جما وله فى فكرها قدر يعقد من التأثير .

٣٠ — قال الدكتور جمال حمدان فى كتابه المثير عن « شخصية مصر — دراسة عبقرية المكان » : « اننا قط لم نكن أحوج مما نحن الان الى فهم كامل معمق موثق لوجهنا ووجهتنا، لكياننا ومكاننا لامكانياتنا وملكاتنا، ولكن أيضا لنقائصنا ونقائضنا كل أولئك بلا تحرج ولا تحيز أو هروب . ففى هذا الوقت الذى تأخذ مصر منعطفا

خطرا ، ولا نقول منحرفا خطأ ، فكل انحراف مهما طال أو صال أو جال أو زوال، ولا يصح فى النهاية الا الصحيح ، فى الوقت الذى تتردى مصر الى منزلق تاريخى مهلك قوميا ويتقلص حجمها ووزنهـــا النسبى جيوبوليتيكيـــا بين العرب وينحسر ظلها ، نقول فى هذا الوقت تجد مصر نفسها بحـــاجة اكثر من أى وقت مضى الى اعادة النظر والتفكير فى كيانها ووجودها ومصيرها بـــأسره : من هى ، ما هى ، ماذا تفعل بنفسها ، بل ماذا بحق السماء يفعل بها ، الام ، والى أين ... الخ ... الخ ؟ **بالعلم** وحده فقط ، لا الاعلام الاعمى ، ولا الدعاية الدعية ولا التوجيه القسرى المنحرف المغرض ، يكون الرد .

« ان مصر تجتاز اليوم أخطر عنق زجاجة وتدلف أو تســـــاق الى أحرج اختناقه فى تاريخها الحديث وربما القديم كله . ان هناك انقلابا تاريخيـــا فى مكان مصر ومكانتها . ولكن من أسفل الى أسفل والى وراء . نراه جميعا راى العين ولكنا فيما يبدو متفاهمون فى صمت على لسان نتعامى عنه ونتحاشى أن نواجهه « فى عينه » ووجها لوجه ، ونفضل ان ندفن رؤوســـنا دونه فى الرمـــــال . لقد تغيرت ظروف العالم المعاصر والعالم العربى من حولنا ، فلم يعد الاول بعيـــدا نائيا ولا عاد الثانى مجرد أصفار على الشمال » .

« ففى عصر البترول الخرافى ، نخدع أنفسنا وحدنا اذا نحن فضلنا فى أن نرى أن وزن مصر وثقلها ، حجمها وجرمها ، قامتها وقيمتها ، قوتها وقدرتها ، بين العرب وبالتالى أيضا فى العالم ككل ، قد اخذت تتغير وتهتز نسبيا فى اتجاه سلبى وان كانت هى فى صعود فعليا . ولم تعد مصر بذلك تملك ترف الاســــتخفاف والاستهتار بمن حولها من الاشقاء او الانعزال المريض المتغطرس العاجز الغبى الجهول الذى يغطى عجزه وتراجعــه وارتداده بكبره المغرور وصـــلفه الاجوف وعنجهيته القزمية ، والذى يعوض مركب نقصه باجترار المـــاضى وامجاده ، وتمجيد العزلة والنكوص باستثارة ادنى غرائز الشوفينية البلهاء . من هنا فـــان مصر فى وجه هذه المتغيرات بحاجة ماسة جدا الى اعادة نظر حادة فى ذاتها والى مراجعة للنفس أمينة وصريحة،بلا تزييف أو ترويق،بلا غرور او ادعاء،بلا زهو ولا خيلاء ، ولكن كذلك بلا تهرب أو استخذاء ، وبلا تطامن أو استجداء » .

٣١ — اذا استطعنا الفكاك من أسر البلاغة الاسرة وجردنا هذا القول من أهاب شحنة عاطفية متأججة بحب مصر نجـــد انه يريد لمصر أن تؤدى فى العالم العربى وعصر البترول الخرافى دورا ينقذهـــا مما يـــرى انها منزلقة اليه منزلقا مهلكا وتسترد به حجمها ووزنها بين العرب وبالتالى مكــــانها ومكانتها فى العالم كله . أى دورا يحقق مصلحة مصر .

نشر هذا الراى فى القاهرة عام ١٩٨٠ اى بعد انعقاد اتفاقيات كامب ديفيد يوم ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ وابرام معاهدة السلام مع المؤسسة الصهيونية المســـماة اسرائيل يوم ٢٦ مارس ١٩٧٩ وتصديق مجلس الشـــعب عليها يوم ١٠ ابريل ١٩٧٩ ، وما عاصره مما اسموه المقاطعة العربية لمصر ، وما ترتب على كل هذا

من أفعال وردود أفعال اججت معركة الصراع الفكرى حول دور مصر فى العالم العربى واثارت كوامن قوى الصراع الاجتماعى ولم تزل .

ولكن على اساس مصلحة مصر ايضا كمحدد لدورها فى العالم العربى كان يمكن ان يقال للدكتور جمال حمدان او ردا عليه : « سيدى ، مادمت تسلم بأن مصر التى تحبها كانت هى فى صعود فعليا بالرغم من كل ما تبكيه وتندبه فلماذا تبدد طاقتك فى العويل على ما فقدته مصر الصاعدة . ألسنا نحتكم الى ما يحقق مصلحة مصر ؟ » . الذى قيل فعلا ردا على كل منكر للدور الذى قامت به حكومة مصر فى العالم العربى ابتداء من عام ١٩٧٠ ان مصر قدفهمت أخيرا فهما كاملا معمقا موثقا وجهها ووجهتها فاستنقذت ذاتها من منزلق تاريخى مهلك وواءمت بين حجمها وظلها . . . الخ ، فحققت مصلحتها ، ومادام المعيار « عبقرية المكان » فان ما قيل اكثر اقناعا مما قال . ولو كان المعيار عبقرية الزمان لكانوا جميعا مخطئين .

على اى حال هذا مثل من خلاف فى ماهية دور مصر فى العالم العربى لا نطيل فى سرد مفرداته . اولا لانه مايزال قائما ، وثانيا لاننا شركاء فيه منذ بدايته مشاركة لم تنقطع الا مائة يوم كنا خلالها مع آلاف من شركاء الموقف ضيوفا على الحكومة فى احد سجونها فلا نريد ان نفسد بحثنا عن المحددات الموضوعية لدور مصر الدولة أو دولة مصر فى العالم العربى بما قد يكون متأثرا بالتجربة الذاتية . فنلفت فقط الى أن « مصلحة مصر » محدد واقعى موضوعى ثابت نسبيا لارادة عنصر الشعب فى دولة مصر يضاف الى المحددين الاخرين : سلامة الاقليم وكمال السيادة . اما ما هى مصلحة مصر فمحل خلاف بين الافراد والجماعات ومتغيره من زمان الى زمان .

٣٢ — انطلاقا من واقع أن مصر دولة يتحدد دورها فى العالم العربى ، اذن ، بثلاثة حدود واقعية وموضوعية وثابتة نسبيا . سلامة أرضها وسيادة شعبها ومصلحتها . وتترتب على هذا نتائج ذات أهمية حيوية بالنسبة الى كل الذين يهمهم أن يعرفوا أو يتوقعوا دور لمصر فى العالم العربى ، نعنى دولة مصر . وبالنسبة الى كل الذين يحاولون دفعها أو تحريضها أو اغرائها على أن تقوم فى العالم العربى بالدور الذى يتمنونه :

اولا : ان كل المشاعر العاطفة أو العاصفة ، وكل الكلمات الرفيعة أو الوضعية ، وكل الحب أو السب ، وكل اسباب الاغراء أو الاغواء ، لن تحمل دولة مصر على أن تؤدى فى العالم العربى دورا لا يتفق مع سلامة أرضها وسيادة شعبها ومصلحتها . وعلى العرب الذين يريدون لدولة مصر دورا فى العالم العربى غير ما تؤديه ان يحترموا دولة مصر ويحترموا لغتهم فيعفوا عن مغازلة الشقيقة الكبرى ويكفوا عن ابتذال عاطفة الاخوة وليتفكروا فيما اراد الله أن يعلمهم اياه حين قص عليهم نبأ أول أخوين من بنى آدم قتل احدهما أخاه . لا . ان دولة مصر لا تقوم بأى دور فى العالم العربى الا اذا اقتنعت بأنه يصون سلامة أرضها ، ويحفظ سيادة شعبها ، ويحقق مصلحتها ، أو — على الاقل — لا يضرها فى واحد

من هذه المحددات الثوابت ضررا حالا أو مؤجلا .. أما اذا وصل الامر حد مطالبة دولة مصر بأن تقوم بدور يصون بسلامة أى أرض على حساب سلامة أرضها ، أو يحفظ سيادة شعب على حساب سيادة شعبها ، أو يحقق أية مصلحة على حساب مصلحتها فهو حلم وليس علما . والاحلام تبددها اليقظة ودولة مصر يقظة لاشك فى هـــذا .

ثانيا : لا يصح ابدا ، مهما تكن الظواهر الشكلية والدعـــاوى المضللة ان ينسب الى دولة مصر أى دور يمس ســـلامة أرضـــها ولو فى شبر ، وينتقص من سيادة شعبها ولو على فتر ، ويضر مصلحتها بأى قدر . فان وقع فهو دور الذين أدوه طوعا أو كرها ولو كانوا من أبناء مصر . ولو كانوا جيلا كاملا من شـــعب مصر . الاكراه معروف الاثر سواء كانت وسائله ظاهرة أم خفية . وبه لا يكون الفاعل المباشر الا اداة فى يد فاعل ظاهر أو خفى . أما التطوع فهو خيانة لمصر عقوبتها — فى مصر — الاعدام كائنا من كان الفاعل ومن شاركوه تحريضـــا أو اتفاقا أو مساعدة . فلا يصح أن ينسب الى دولة مصر دور ينال من سلامة أرضها أو سيادة شعبها أو مصلحتها ولو كانت ادواته من ابناء مصر اذا كان الفاعلون الحقيقيون دولا باغية وكان المحرضـــون والمتفقون والمســـاعدون الذين حضروا المسرح للدور المنسوب الى دولة مصر منثورين افرادا وجماعات وقوى واحزابا وحكومات وحكاما على أرض العالم العربى أو أرض العالم الغربى . ولا يجدى فى اخفاء الادوار أن ينكر المجرمون ادوارهم . نرجو الا يهرب هذا الذى نقول من دائرة الانتباه الجاد لدى كل الجـــادين لانه خلط خطير بين دور الجـــانى ودور المجنى عليه . خاصة وان قد ثبت اخيرا ان كثيرا من المنكرين كانوا متنكرين ، وقد سقطت الاقنعة وهم يزحفون الى المسرح ، أو يقفزون اليه ، ليؤدوا ذات الدور الذى أنكروه واستنكروه باتقان فنى أكثر جاذبية من اداء الممثل الذى غاب وان كانت الرواية واحدة والمخرج واحدا .

ثالثا : ان دولة مصر ، مثل أية دولة عربية ، مثل اية دولة فى العالم ، عضو فى الاسرة الدولية فهى غير قـــادرة على أن تؤدى فى العـــالم العربى الدور الذى تختاره بعيدا عن قواعد وتقاليد واحكام القانون الدولى . أو بعيدا عن توصيات وقرارات المنظمات الدولية . أو بعيدا — بوجه خاص — عن موازين القـــوى فى العالم . وانا لنعرف من امر قواعد وتقاليد واحكام القانون الدولى وتوصـــيات وقرارات المنظمات الدولية انها غير ملزمة الا لمن يقبلها . ولكنا نعرف أيضا ان مـــوازين القوة بين الدول ذات ثقل واقعى لا تحتمله دولـــة الا بقدر واقع ثقلها الخاص . وبالتالى فان دولة مصر لا تستطيع ان تؤدى فى العالم العربى دورا اكبر من طاقتها كدولة صغيرة فقيرة بالنسبة الى دول العـــالم الغنية الكبيرة . وما لا تستطيع دولة مصر أن تؤديه لا يتوقع منها ولا يطلب .

٣٣ — هذا هو المحدد المجغرافى الاقليمى اقتنن دوليا وهذه هى نتائجه . استجابة وتطبيقا لهذا المحدد قال قائد ثورة ١٩١٩ سعد زغلول ان الدول العربية اصفار ، لا احتقارا لها ولكن طبقا لمقاييس المكاسب والخسائر التى تصيبها مصر

من علاقاتها بالدول العربية ، لهذا يستثنى من تقييمه السودان حيث يملى النهر على مصر اوامر المحدد الجغرافى الاقليمى مع كل قطرة ماء تأتى من الســودان . فيقول سعد زغلول نفسه عام ١٩٢٤ ان مصر لا تكون حرة بدون السودان لان امتلاك السودان معناه التحكم فى مصر . وستتحطم كل جولات المفاوضات المصرية الانجليزية حول جلاء القوات البريطانية عن مصر ذاتها على صخـرة السودان . ويصل الامر الى حد ان يقول مصطفى النحاس « تقطع يدى ولا يقطع السودان » هذا فى حين يصدر اسماعيل صدقى وزير داخلية مصر عام ١٩٢٥ أمرا باعتقـال الفلسطينيين الذين تظاهروا فى القاهرة ضد وعد بلفور الذى كان يهدد باقتطاع فلسطين من الجسم العربى . وتقف حكومة محمد محمود ضد الثورة الفلسطينية عام ١٩٢٩ وتدينها . وتكتب جريدة الســياسة الناطقة بلسان حزب الاحرار الدستوريين مقــالات متتــابعة بقلم الدكتور محمد حسين هيكل يعدد فيها الفلسطينيين الذين يثيرون الرأى العــام فى مصر ٥ لقــد كانت المفاضـلة بين دور التأييد لثورة فلسطين وبين دور المحافظة على الامن الداخلى لمصر فاختار المحدد الجغرافى الاقليمى الدور الثــانى لمصر . وفى عام ١٩٣٧ لا يرى مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد فى تحويل فلسطين الى وطن للصهاينة الا سببا لعدم الاطمئنان على سلامة اقليم دولة مصر ، فيقول انه لا يستطيع الاطمئنان وهو يفكر فى قيام دولة يهودية على حدود مصر ، اذ ما الذى يمنع اليهود من ادعاء حقوق لهم فى سيناء فيما بعد . ويبلغ تأثير المحدد الجغـــرافى الاقليمى فى صياغة دور مصر فى الوطن العربى أن تطرح حكومة الوفد خلال مفاوضاتها مع الانجليز عــام ١٩٥٠ ــ ١٩٥١ فكرة اجلاء قوات الاحتلال البريطانى من مصر الى غزه . وتأتى ثورة ١٩٥٢ فلا يرى عبد الناصر فى العالم العربى الا دائرة تحيط بمصر كما قال فى « فلسفة الثورة » . ان العالم العربى هنا هو العالم المجاور . أو المجال الحيوى لمصر كما عبر عنه محمد ابراهيم كامل وزير خارجية السادات الاسبق وهو يحاور رئيسه خلال مفاوضات كامب ديفيد . على ضــوء المحــدد الجغرافى الاقليمى ، وليس على ضوء أى محدد آخر يفهم فهما صحيحا دور مصر فى ابرام سلسـلة متتابعة من الاتفاقات مع من يريد من الدول العربية . ابتداء من اتفاقية الجامعة العربية عام ١٩٤٤ ، واتفاق مصر وسورية والســعودية عــام ١٩٥٣ ، الذى ستنضم اليه اليمن ، ومقاومة مصر لمشروع ايزنهاور وحلف بغداد ، واتفاقيــات الدفاع المشترك وتأليف أول قيادة عسكرية موحدة فى اكتوبر ١٩٥٥ . انها الدول المتجاورة جغرافيا تشترك فى الاعداد لتحقيق مصالح مشتركة كما تفعل كثير من الدول المتجاورة سواء أكانت عربية أو غير عربية . وعلى ضوء المحدد الجغرافى الاقليمى يفهم فهما صحيحا لماذا لم تقم مصر ، ولا اية دولة عربية ، بدور عسكرى هجومى ضد اسرائيل منذ ان قامت اسرائيـل ، وكانت حروب تلك الدول عــام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣ حروبا دفاعية . ذلك لان دولة مصر ، واية دولة عربيا ، ليست الا جارة قريبة أو بعيدة عن أرض فلسطين . وعلى ضوء المحدد الجغرافى الاقليمى يفهم فهما صحيحا دور مصر والدول العربيــة جميعا فى قصر

معركة تحرير فلسطين على استرداد الارض التى احتلت عام ١٩٦٧ ولو مقايضة على الارض التى أغتصبت عام ١٩٤٨ . لانها جميعا دول مستقلة بعضها عن بعض ومستقله جميعها عن فلسطين ، وما اسرائيل بالنسبه اليها — كدول — الا خطرا توسعيا يهدد حدود أقاليمها او مصادر ثروتها . وعلى ضوء هذا المحدد الجغرافى الاقليمى صدق ما قلناه فى ابريل ١٩٧٠ فى محاضره القيت فى نقابة المحامين بعمان (الاردن) من أن الدول العربية منفرده او مجتمعة لن تحرر فلسطين . وتحت نظرنا أيه معجزه . ان شعبنا العربى البطل يقاتل منذ اربع سنوات دفاعا عن حدود دولته قتالا معبرا — من حيث الشجاعه والكفاءه — عن مدى اثر المحدد الجغرافى الاقليمى فى حجب هذه الشجاعه والكفاءه والبطولة عن ان تقوم بدور حاسم فى معارك تحرير فلسطين .

ثم يأتى السادات فيتعامل بجسارة مذهلة مع هذا المحدد الجغرافى الاقليمى وحده ، غير متأثر بأى محدد غيره ، فيخوض آخر معركه مشتركه مع الدول العربية عام ١٩٧٣ كتجربة أخيره . وما أن تعبر القوات الاسرائيلية القناة فى اتجاه القاهرة حتى ينهزم هو بالرغم من انتصار القوات المسلحة من قبل واعترافه هو بمقدرتها على تحقيق النصر على الذين عبروا القناة ، فيملى عليه المحدد الجغرافى الاقليمى اتفاقيات كامب ديفيد املاء فرعونيا خالصا . اسرائيل جارة مصر الشرقية . اسرائيل دولة مجاوره لدوله . اثبتت الحروب المتعاقبة أن مصر الدولة غير قادرة على هزيمتها وفرض ارادتها عليها . فالبديل الدولى المتاح والذى يتفق مع كون مصر دوله هو ان تؤمن حدودها الشرقيه بالصلح مع جارتها . هذا هو جوهر اتفاقيات كامب ديفيد . وهو ليس من اختراع السادات . ان كل الفراعنه من قبل الفتح العربى حاربوا جيرانهم واصطلحوا معهم حسب متغيرات القوة النسبيه فيما بينهم . وكلهم ، بما فيهم السادات ، كانوا يؤدون الدور الذى يتسق مع المحدد الجغرافى الاقليمى .

الذى اخترعه السادات هو انه تجاوز مقتضيات هذا المحدد وانحاز الى المؤسسة الصهيونية ضد العرب ، فاعترف باسرائيل . والاعتراف باسرائيل ليس موقفا محايدا بل هو انحياز الى الصهيونية . اذ ان الصراع العربى الصهيونى يدور منذ نصف قرن حول أرض فلسطين لمن تكون ومن صاحب الحق فيها ، الشعب العربى أم الشعب اليهودى . فمن يعترف بأنها من حق الشعب اليهودى يكون قد أنكر حق الشعب العربى . وليس ثمة موقف وسط كائنا من كان الذى يعترف باسرائيل وكائنة ما كانت الاسباب التى ينتحلها .

ثم انه قبل زيارة السادات للقدس يوم ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ كانت الضغوط الدولية التى لم تتوقف منذ يونيو ١٩٦٧ قد انتهت الى أسلوب يحفظ ماء وجه الدول العربية ويجمعها مع اسرائيل على مائدة مفاوضات دولية تنعقد فى جنيف ، وكان لاسرائيل شرط هو أن تبدأ المفاوضات بدون شروط مسبقة . تلك كانت أمنية

اسرائيل الى ما قبل شهر واحد من الموعد الذى كان محددا لانعقاد مؤتمر جنيف . وفجأة زار السادات القدس فقبرت كل الجهود الدولية التى بذلت من أجل الوصول الى صيغة مؤتمر جنيف . ثم عقد السادات اتفاق كامب ديفيد المسمى « اطار السلام فى الشرق الاوسط » ووضع مع الصهاينة الشروط المسبقة لاية مفاوضة .

تقول الوثيقة تحت العنوان الفرعى « المبادىء المرتبطة » انه يجب — ليس على مصر فقط — بل على مصر والاردن وسورية ولبنان أن يعترفوا باسرائيل اعترافا كاملا ، وأن يلغوا المقاطعة الاقتصادية وان يقيموا معها علاقات طبيعية ، وان يكتشفوا معها امكانية التطور الاقتصادى فى اطار اتفاقية السلام النهائية بهدف المساهمة فى صنع جو السلام والتعاون والصداقة .

هذا هو الذى اخترعه السادات متجاوزا المحدد الجغرافى الاقليمى المقنن فى دولة مصر . اذ أن هذا المحدد لايخول مصر حقافى أن تنظم الحياة على غير اقليمها، ولا ان تنوب عن شعب غير شعبها ، ولا أن تشترى مصلحتها بمصلحة غيرها . وانى لعلى يقين من انه لو كان السادات قد بقى فى نطاق المحدد الجغرافى الاقليمى وهو يؤدى الدور الذى اريد له على مسرح كامب ديفيد وقصر اتفاقياته على دولة مصر بحدودها اقليما وسيادة ومصلحة لاعتبرت كل الدول العربية ، علنا أو خفيه ، انه لم يفعل شيئا غير الذى يفعلونه هم . ولتذكروا جميعا انهم قد سبقوه الى التعاهد فى الدار البيضاء على الا تتدخل دولة عربية فى شئون دولة عربية أخرى .

اذا استبعدنا الاختراعات والنزوات والاساليب الغريبة فى الاداء ، يبقى ان ما هو جوهرى فى الدور الذى أداه السادات فى العالم العربى ليس اختراعا ونزوة ولا غريبا بل هو ترجمة دقيقة وحرفية لدور دولة مصر فى العالم العربى كما يفرضه المحدد الجغرافى الاقليمى المقنن فى دولة مصر . على هذا الوجه نفهمه فهما صحيحا ، ونفهم أن كثيرين ممن وقفوا ضد السادات لم يقفوا ضد نتائج المحدد الجغرافى الاقليمى ولكن ضد أسلوب أنور السادات فى الاستجابة لهذا المحدد وترجمته فى اتفاقيات . باختصار انهم كانوا وما يزالون ضد شروط الصفقة ولم يكونوا ضد الصفقة ذاتها .

مصر العربية :

٣٤ — فى مواجهة المحدد الجغرافى الاقليمى لدور مصر فى العالم العربى ثمة المحدد التاريخى القومى : مصر جزء من الامة العربية . ان الدور الذى يحدده انتماء مصر القومى ليس فى حاجة الى حديث طويل . فالاقليم ليس مصر الواقعة فى الشمال الشرقى من افريقيا بل الوطن العربى كله بما فيه مصر . والمصلحة ليست مصلحة مصر ولكن مصلحة الامة العربية كلها بما فيها مصلحة مصر . وبه يصبح تحرير الوطن العربى كله من المغتصبين والمستعمرين والمسيطرين دورا لمصر . وبه يصبح الغاء تجزئة الوطن العربى واقامة دولة الوحدة تجسيدا لسيادة

الشعب العربى على وطنه دورا لمصر . وبه تصبح المحافظة على ثروات الوطن العربى ، بما فيها ما يوجد فى مصر ، وتوظيفها فى خدمة تقدم الشعبى العربى كله اقتصاديا واجتماعيا وروحيا دورا لمصر . وبه يصبح ثقل مصر فى موازين القوى الدولية هو ثقل الامة العربية . وبه لن تكون اسرائيل جارة خطره لمصر تردع أو تقبل ، بل تكون فلسطين أرضا مغتصبة من الوطن الواحد ويكون على الصهاينة أن يرحلوا منها سلما أو حربا . ويكون هذا هو دور مصر .

ولكن أى مصر هـذه ؟

انها مصر الشعب العربى وليست مصر الدولة الاقليمية . ولقد عرفنا من قبل مدى ما يستطيع الشعب فى الدولة . ولكننا عرفنا أيضا أن الشعب العربى فى مصر ليس راكدا ، ان نسيج أمته يشده اليها وتراث أربعة عشر قرنا يصوغ فكره وتقاليده وآدابه . وهو لم يكف ولا يكف عن مقاومة العزلة والانعزال وصياغة دور مصر فى الوطن العربى كلما استطاع أن يفلت من حصار مصر الدولة ، أو كلما تركته الدولة بدون حصار . فنراه ولم يزل يقوم بدوره الحضارى على مستوى الوطن العربى كله علما وتعليما وثقافة وفنا وتعميرا . ان ٣٥٪ من القوة العاملة المؤهلة فى الوطن العربى من مصر . وما يزال الازهر فى مصر . ونصف خريجى الجامعات العربية من خريجى جامعات مصر . انه المحدد الذى يحمل عشرات الالوف من أبناء مصر الى أطراف الوطن العربى راغبين ثم يقف بهم عند حدوده . لا يعبرون العراق الى ايران . ولا يعبرون سوريه الى تركيا . ولا يعبرون السودان الى الحبشة . ولا يعبرون المغرب الى أسبانيا ، مهما تكن المغريات ، خوفا من الشعور بالغربة التى لا يشعرون بها فى الوطن العربى . انه المحدد الذى أفشل القطيعة كما صاغها حكام الدول العربية فلم يشعر أحد فى مصر بأن قطيعة الدول قد أثرت فى عدد الوافدين الى مصر من أطراف الوطن حيث القاهرة عاصمتهم قبل عواصمهم .

انه المحدد الذى دفع بالقادرين من مصر الى القتال عام ١٩١٢ دفاعا عن ليبيا ضد الغزو الايطالى ، الذى حرك جماهير مصر احتجاجا على وعد بلفور . الذى املى على المرحوم الشيخ حسن البنا المرشد العام للاخوان المسلمين أن يرد على طه حسين بأن من يحاول سلخ قطر عربى من الجسم العام للامة العربية يعين الخصوم الغاصبين على كسر شوكة وطنه واضعاف قوة بلاده . ويحمل مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد على أن يوفد عبد الرحمن عزام مندوبا عنه الى المؤتمر الاسلامى الذى أنعقد فى القدس عام ١٩٣١ ليشارك فى قرار الدعوة الى توحيد البلاد العربية واستنكار تجزئة فلسطين . والذى عبر عنه مكرم عبيد سكرتير حزب الوفد حينما كتب فى مجلة الهلال عام ١٩٣٩ مقالا يدافع فيه عن عروبة مصر بعنوان « المصريون عرب » . وهو المحدد الذى حمل حكومة الوفد على أن تمنع سفر العمال من مصر ليحلوا محل العمال فى فلسطين خلال

ثورة ١٩٣٦ . وهو المحدد الذى دفع بالمتطوعين من مصر فسبقوا دولتهم الى أرض المعركة فى فلسطين عام ١٩٤٨ . المحدد الذى منع الدكتور محمد صلاح الدين وزير خارجية مصر عام ١٩٥٠ من أن يقبل الصلح مع اسرائيل فى مقابل جلاء القوات البريطانية عن مصر . المحدد الذى أوحى الى عبد الناصر عام ١٩٥٦ أن يسمى قناة السويس « قناة العرب » . ، ولقنه عام ١٩٥٧ ما قاله أمام مجلس الامة : « ان القومية العربية هى امضى اسلحتنا فى الدفاع عن وطننا سواء فى ذلك حدودنا المصرية أو حدودنا العربية الشاملة » ، وسمح له بأن يرسل قوات من مصر الى سورية ، وان يقبل الوحدة بين مصر وسورية ويقول عام ١٩٥٨ : « اذا كان العالم قد عاش من قبل عصر النهضة ثم عاش بعد ذلك عصر القضاء فاننا نعيش اليوم عصر الوحدة العربية » . انه المحدد الذى فتح الطريق أمام مصر لتساند بالبشر والمال والسلاح والسياسة حركات التحرر العربى فى كل قطر عربى ، وتحمل قواتها لتقاتل على قمم جبال اليمن . وهو المحدد الذى وثقه الشعب العربى فى مصر فى دساتيره المتتابعة منذ ١٩٥٦ : مصر جزء من الامة العربية ، ثم ترجمه الى دور مصر فى الوطن العربى فأضاف فى دستور ١٩٧١ : ويعمل شعبها على تحقيق وحدتها الشاملة ، فألزم دولته أو حكومته بأن تؤدى هذا الدور أو تسمح للشعب أن يؤديه . وأخيرا هو المحدد الذى ما يزال يدفع جماهير مصر الى محاصرة اتفاقيات كامب ديفيد وافشالها بالرغم من انها أصبحت قانونا من قوانين دولته ، ويلغى منها كل النصوص التى يتوقف نفاذها على قبول الشعب مثل التطبيع والصداقة والكف عن مناهضة الصهيونية .

(٥)

المشكلة

الازدواج :

٣٥ — لقد أردنا أن نثبت بالامثلة أن دور مصر فى العالم العربى متردد بين قوتى جذب ، أحدهما اقليمى والاخر قومى . وان هذا التردد قد أدى الى أن مصر بقيادة ذات الحكام تؤدى أدوارا متناقضة فى الظروف المختلفة . وبالتالى نستطيع أن ننتهى الى عدة معطيات خاصة بدور مصر فى العالم العربى .

أولا : ان لمصر دورا ايجابيا دائما فى العالم العربى سواء التزمت المحدد الجغرافى الاقليمى حيث العالم العربى هو الدول المجاورة والمجال الحيوى ، أو التزمت المحدد التاريخى القومى حيث العالم العربى هو عالم الامة العربية التى هى — أى مصر — جزء منها تاريخيا ومصيريا . وبالتالى فان عزل مصر أو انعزالها عن العالم العربى مستحيل . ويكون من العبث الواهم محاولة عزلها أو انعزالها أو تصور مستقبل عربى بدون دور لمصر أو مستقبل مصرى بدون دور عربى . لن يحدث هذا دوليا الا قهرا وحين تفقد الدولة ارادتها . ولكنه لن يحدث شعبيا ولو بالقهر ولو فقدت الدولة ارادتها .

ثانيا : ان تأثير المحدد التاريخى القومى على دور مصر فى العالم العربى اقوى من تأثير المحدد الجغرافى الاقليمى . لا يرجع هذا الى مقدرة الشعب العربى فى مصر على أن يفرض على دولته الادوار التى تؤديها ولكن يرجع الى التقــاء المحددين المتناقضين على مضامين مصلحة مصر فى المدى الطويــل . ذلك لان ما تعتبره دولة مصر مصلحة مشتركة بينها وبين العالم العربى هــو فى حقيقته الموضوعية مصلحة واحدة ، بصرف النظر عن مصالح الحكام . وهو ما اكتشفه عبد الناصر من خلال الممارسة وهو يناضل من أجل تحقيق مصلحة مصر . أراد أن يحرر الوطن المصرى فوجد انه لا يستطيع ذلك الا اذا تحرر الوطن العربى ، فتحول من قائد تحرر مصرى الى قائد تحرر قومى واعترف بهــذا فى محادثات الوحدة الثلاثية عام ١٩٦٣ فقال ان الثورة قد بدأت اقليمية ثم تحولت من خــلال الممارسة الى ثورة قومية .

ثالثا : ان المحدد الجغرافى الاقليمى يقاوم ، وبضراوة فى بعض الاوقات ، ولكنه فى النهاية سيستسلم حين تثبت الممارسة للاقليميين أنفسهم أن الوحدة اضافة الى دولتهم وليست انتقاصا منها . وطن أكبر وشعب أكثر ومصالح أرقى وثقل دولى يفوق ثقل مصر منفرده بمراحل . وقد يدفعهم الى الاقتناع مجــرد انقضاء عصور الدول والدويلات على المستوى العالمى ودخول العــالم عصر التكتلات الكبيرة .

أين المشكلة اذن ؟

المشكلة هى أن ازدواج المحددين الموضوعين ، مصر دولة ، ومصر جــزء من الامة العربية ، وتناقضهما فى الوقت ذاته يحول بين مصر وبين القيام بدور استراتيجى فى العالم العربى. أما على المستوى التكتيكى أو المرحلى فيبقى دورها مترددا بين قوتى جذب المحددين . صحيح أن نوع القيادة ذو أثر لا يستهان به ولكنه ليس حاسما . لم يكن فى أى يوم حاسما ، ولن يكون فى أى يوم حاسما ، فما أن تتجه مصر الى أداء دورها التاريخى انطلاقا من انها جزء من الامــــة العربية حتى ترتد الى أداء دورها الجغرافى استجابه لكونها دولة اقليمية . ويؤثر هذا التردد تأثيرا سلبيا مدمرا لمقدرة مصر على أداء أى الدورين بالكفاءة التى هى قادرة عليها . فما يبنى على الطريق القومى لا يلبث حتى يهدم على طريق الردة الاقليمية . وما يشيد على أسس اقليمية لا يلبث حتى ينهار لتقوم بدلا منه أسس قومية . وهكذا تبدد طاقة مصر الفكرية والاقتصادية والسياسية والعســكرية والمعنوية أيضا لان مصر الدولة ، تحت أى حاكم غير قادرة على الانعزال عــن مصيرها القومى ، ومصر الشعب تحت أى قيادة غير قادرة على الافلات من أسر دولتها .

ونكرر مره أخرى أن ما يصح بالنسبة الى مصر يصح بالنسبة الى أيــه دولة عربيــة .

٣٦ ــ وقد ظنت الدول العربية منذ أن أصبحت دولا انها قادرة على تجاوز

ازمة التناقض بين الحصر الاقليمى فى دول متعددة والانتماء القومى الى امة واحدة يصبح التعاون أو التحالف أو التضامن أو المشاركة على جميـع المسـتويات السياسية والاقتصادية والثقافية والاعلامية والعسكرية والدولية . وهـو ممكن بل انه الممكن الوحيد بالنسبة الى الدول العربية . ولكن هذا الممكن لا يحـل المشكلة التى تعانى منها مصر كما تعانى منها الدول العربية جميعا . أعنى العجز المحتوم عن التعاون أو التضامن ... الخ لتحقيق أهداف استراتيجية .

أولا : لان التضامن بين الدول العربية بصيغة المتعددة من أول الاتفاقات الثنائية الى الجامعة العربية نوع من الصيغ « الجبهوهية » التى يلتقى فيهـا المختلفون أصلا لمواجهة خطر واحد مشترك أو لتحقيق غاية واحدة مشتركة . هذه الصيغة ــ نعنى الجبهة ــ لها قوانينها التى لا حيلة لاحد فيها ، وهى انها تتـم وتبقى على مستوى الحد الاقصى لمصلحة ادنى الاطراف مصلحة . وهو ما يعنى أن التضامن بين الدول العربية يتوقف اثره ومصيره على ارادة الدولة الاضعف من بين أطرافه . اذا كان بين كل الدول العربية كما هو الحال فى الجامعة العربية فانه سيتم ويحقق من النجاح ما لا يتجاوز ما تريده اضعف دولة عربية . ولم يكن اتفاق الدول العربية على أن تصدر قرارات الجامعة العربية بالاجماع الا استجابة واقعية ومنطقية لهذا القانون . فى الوطن العربى دويله تعيش منذ وجدت على ذكاء حاكمها اذ ليس لوجودها أى مبرر آخر . وحاكمها كأن ولم يزل من اكثـر حكام العرب ذكاء . ادهشنى ان قد دعا اخيرا الى ان تكون قرارات الجامعـة العربية نافذة اذا وافقت عليها الاغلبية . فقلنا خان الذكاء والحمد لله . ليتهم يستجيبون وسيرى هذا الحاكم وغيره ان قد فتح باب قرارات تتالى صادرة من « الاغلبية » بالغاء الوجود المستقل للكثير من الدويلات وعودتها الى الوضع الذى كانت عليه قبل انشائها المصطنع . ومن يدرى لعل أول قرار سيصدر بتوحيد اقليم الشام والغاء الوجود المستقل لبعض أجزائه التى اصبحت دولا عليها حكام اذكياء أو أغبياء ، فيحمـد الشـعب العـربى الله على أن قل العـدد فزادت البركة .

أما اذا كان التضامن أو التحالف ... الخ بين بعض الدول العربية فقـد يحقق نجاحا أكبر ولكنـه يظل مرتبطـا باضعف اطرافـه . وقـد تؤدى جبهة بين عدد محدد من الدول العربية الى قيام جبهة أخرى ، أو جبهات اخرى من دول محددة أخرى . وهذا يعنى ان العجز عن تحقيق هـدف استراتيجى قـد أصبح عداء ، أو فلنقل منافسـة ، بين أهداف مرحلية مختلفة . وليس مـن المستبعد أن تكون مناهضة آمال الشعب العربى أو فى التحرر والوحدة والتقدم من بين تلك الاهـداف . اذ ليست العبرة بالتضامن أو التحالف أو الالتقـاء انما العبرة بما يتضامنون على تحقيقه ويتحالفون من أجل الوصول اليه ويلتقون

عليــه . وهم لا يلتقون دائما على خير . الا نــرى انهم لم يتضامنوا ويتحالفــوا ويلتقوا على شىء واحد ثابت الا الابقاء على تجزئة الامة العربية .

ثانيا : اما القانون الثانى للعمل الجبهوى فهو انــه مؤقت بحيث يعجز تماما عندما يكون مطلوبــا منه مواجهة مشكلات استراتيجية تخطيطا وتنفيــذا وتعبئة تمتد زمانا طويلا أو زمانا غير محدود مثل مشــكلة استرداد فلســطين المغتصبة ، أو مواجهة مشــكلات متجددة ابدا مثل مشــكلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية . فى أول فرصــة تجد ايــة دولة عربية أن « ارباح » التضامن أقل من « تكاليفه » ، على أى مستوى ، تفلت وينهار التضامن جزئيــا او كليــا . وللدول العربية فى هذا تجارب مــرة . لقد انهارت كل صيــغ التعاون الاقتصادى والعسكرى التى انشئت فى نطاق الجامعة العربيــة أو خارج نطاقها بقرارات منفــردة او ثنائيــة أو حتى جماعيــة . (المجلس الاقتصــادى المشترك ـ اتفاقيــة الوحدة الاقتصادية بأجهزتها ـ مجلس الوحدة الاقتصادية ـ اللجان الدائمة ـ المكتب الفنى الاستشارى ـ السوق العربيــة المشتركة ـ صندوق الانماء الاقتصــادى والاجتماعى ـ اتفاقيــات الدفــاع المشترك ـ اتفاقيــات الوحدة وأخيرا القرار الذى صدر بالاجماع لا تفــاوض ولا صلح ولا أعتراف باسرائيــل) .

٣٧ ـ هل يعنى هذا ان كل تلك الصيغ مــن التعاون الى التضــامن عبث ؟ . . . ابدا . انها ليست عبثا . فهى تقاليــد قديمة ومتكررة فى العلاقات فيما بين الدول « المستقلة » . فحينما تتفق الدول العربية أو تتعاون أو تتضامن فهى تفعل هذا لا باعتبار اقطارها اجزاء من الامة العربية ، اى ليس استجابة للمحدد التاريخ القومى ، ولكن باعتبارها دولا مستقلة اى استجابة للمحدد الجغــرافى الاقليمى . فنســطيع أن نقــول مطمئنــين أن هــذه الصيــغ الجبهوية تكريس لفاعليــة المحدد الجغرافى الاقليمى ، وأضعاف معتمد أو غير معتمد لفاعلية المحدد التاريخى القومى .

هذا بالنسبة الى الامة العربية ومصيرها الواحد ، أما بالنسبة الى الدول العربية اطــراف التعاون أو التضامن أو أعضــاء الجامعة العربية فقد تكــون صيغا مفيدة على المدىالقصير . وما دامت على المــدى القصير فانها لن تحل مشــكلة أية دولة فيها . اعنى المشــكلة موضوع الحديث . لن تســمح تلك الصيغ لايــة دولة متعاونــة أو متضامنة أو عضو فى الجامعة العربيــة بأن تحدد لذاتهــا دورا استراتيجيا فى الوطن العربى يتفق مع انتمائهــا القومى الى الامة العربية . ولن تحميها من فاعليــة هذا الانتماء فى افشــال خططها الاقليمية ، وتبقى كما هى مترددة بين حدين متناقضين . وستظل تهدر طاقتها البشريــة والمادية فى بناء ما ستهدمه وهــدم ما بنته .

(٦)

الحـــل

الوحـــدة :

٣٨ ـ هل لهذه المشـكلة حل أو حلول ؟ أولا ، ليس لاية مشـكلة الا حـل صحيح واحد فى زمان معين . هكذا قال منذ قرون الفيلسوف العربى ابن الهيثم ، وهكذا تقول كل المذاهب العلميـة الحديثة التى تسـلم بأن للواقع الموضوعى حقيقة واحدة بصرف النظر عن اختلاف الناس فى أمره . ان يختلف العرب فى معرفـة الحل ويدعى كل صاحب رأى أن رأيـه هو الصحيح فقد يكونـون كلهم مخطئين ، ولكن المستحيل أن يكونوا جميعا صائبين أو أن يكون ثمة رأيان صائبان ومختلفـان فى الوقت ذاتـه . هذه قضية منهجيـة أوليـة ما لم يدركها ونلتزمها فستضيع حيـاة أجيال كثيرة فى محاولات تلفيق حلول لمشكلة واحدة .

أما الحل الصحيح فى رأينا فهو دولة الوحـدة . دولة واحدة لامـة واحـدة . أى ايقـاف والغـاء تلك الردة الغبيـة الى الماضى حيث كانـت الشعوب شعوبا متجاورة يخضـع كل منها للمحدد الجغرافى لن تتحرر دولة عربية وان تحررت لن تحتفظ بحريتها ، ولن تتقـدم الحياة فى دولة عربية وان تقدمت فبالممكن الاقليمى القليـل وليس بالمتـاح القومى الكثير ، ولن تسترد الارض المغتصبة واذا استرد بعضها فلن يكون الا بشروط الغاصبين ... ما لم يتحرر الشعب العربى من تلك المؤسسات السجون التى تسمى الدول العربية . ان لكل دولة عربيـة ، بما فيها مصر ، دورا فى الوطن العربى ، هذا لا شـك فيه ، ولكن لن تستطيع أيـة دولة عربية ، بما فيها مصر ، ان تقـوم بدور استراتيجى يتفق مع كونهـا جـزء من أمـة واحـدة الا فى دولة الوحدة . من كانت لـه اذنان فليسـمع ، ومن كان له عقل فليعقل . ومن كانت لـه تجربة فليعتبر .

ولكن كيف الوحـدة ؟

٣٩ ـ هذا سؤال مشروع . وهو يستمد مشروعيته من موقف صاحبه . فكل الذين استمعوا وعقلوا واعتبروا وحرقـوا مراكب الاقليمية فهم يريدون أن يعرفوا كيف يعبرون التجزئـة الاقليمية الى مصر الوحدة من حقهم أن يسألوا هذا السؤال . كل الذين يريدون ان ينهوا الازدواج والتردد والتناقض فى سياساتهم من حقهم أن يسألوا هذا السؤال . كل الذين لا يريدون أن يعيشـوا فى القـرن العشرين خاضعين لمـا خضع لـه الاشوريون والفراعنـة والكنعانيون ... الخ وأن يعيشوا عربـا من حقهم أن يسألوا هذا السـؤال . وعلى كل من يدعـو الى الوحـدة ان يعرف اجابة هذا السـؤال وأن يقبـل مناقشتها وتعديلها واستبدالها باجابة اخرى ... وأما الذين ليس من حقهم أن يسألوا السـؤال : كيف الوحدة ولا يستحقون الاجابة عليهم فهم اعداؤهـا الذين يستهدفون من وراء السؤال التشـكيك فى الوحـدة . ومن مظاهـر التشكيك التى لا تخفى على أحـد

قبولهم ورضاهم الحيـــاة فى اسر دولهم الاقليمية بل والتنافس على الاستيلاء عليها وحكمها .

أما المنافقون فيجيبون على السؤال : كيف الوحدة جوابا مستحيلا ، حتى يظلوا غير متهمين فى قوميتهم وغير قوميين فى الوقت ذاتـــه . ولقـــد قال الله تعالى عن المنافقين : « واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى » (النساء : ١٤٢) أى انهم يصلون !! ثم انذرهم بما هو اســوأ من مصير الكافرين فقـــال : « ان المنافقين فى الدرك الاســفل من النـــار » (النساء : ١٤٧) . قياســـا على منطق الآيـــات الكريمة نقول ان المنافقين هم أولئك الذين لا ينكرون الوحدة ولكنهم لا يناضلون نضـــالا غير كســـول من أجل تحقيقهـــا . وان مصيرهم فى دولة الوحدة سيكون انكى من مصير الاقليميين انفسهم . ومن المنافقين من يزعم ان الوحدة تقـــوم اتفاقا بين الدول العربية . وهو محال .

٤٠ — جرب هذا الحل بالذات عام ١٩٥٨ وعام ١٩٦٣ وعام ١٩٧١ وفشل فى كل تلك التجارب فانفصمت الوحدة وتحول الاخوة الى اعـــداء . وكل وحـــدة على هذا النمط تنفصم طـــال الزمن أو قصر . حسنت النوايا أو ساءت . ذلك لانـــه محال فى الوطن العربى وكان محالا على مـــدى التاريخ منذ انتهـــاء عهـــد الامبراطوريات ، ومحال على مـــدى اتساع الكرة الارضية أن تتحقق الوحدة اتفاقا بين دولتين . لا أريـــد ان استطرد فى بيـــان اسباب الاستحالة ، فمنذ ربع قـــرن ، وكلما لاحت تجربة جديدة ، حذرت فى كتب ومقالات منشورة من وهم مقدرة رؤساء الدول على الغاء دولهم ذلك أن الوحدة القائمة على أسس قومية ليست جمعا بين دولتين ، ولكنهـــا الغاء لدولتين أو أكثر لاقامة دولة واحدة على انقاضهما أو انقاضها . وعندما يتقدم ممثلو كل دولة الى مائـــدة المفاوضات من أجل الوحدة ، يتفاوضون ، يتساومون ، يتفقـــون ، ثم يرجـــع كل واحد الى دولته ليحصل على تصديقها على هذا الاتفاق . هنا يواجهون المحال . كيف يمكن لايـــة دولة أن تصدق على اتفاق يلغى شرعيـــة وجودهـــا المستقل . انهم فى اللحظـــة التى يقبلون فيها يفقدون شرعيـــة تمثيلهم للدولة . بعض الحكام استطاعوا ويستطيعون أن يفعلوا هذا بدون توقف على ما تأذن به الشرعية . ولكن هذا لا يعنى انهم وهم يحققون الوحدة كانـــوا يمثلون دولهم ولكن يعنى انهم يثورون ضد دولهم ذاتهـــا من أجل هـــدف يؤمنون بأنـــه مصدر الشرعية أو المصدر الوحيد للشرعيـــة لا بأس بهذا على أن نتذكـــر ان الوحـــدة هنـــا متحققة بارادة الثورة ضـــد الدولة الاقليمية وليس اتفاقا بينها وبين دولة اقليمية أخـــرى . هذا — طبعا — عندما يكون القرار الوحدوى صادرا من ممثل لدولة توافرت لها كل عناصر الدولة فهو ثورة عليهـــا ؛ وليس كل قطـــر من الوطن العربى يسمى مجازا « دولة » هـــو فى الحقيقة دولة ، ففى اقطار عربية كثيرة تسمى دولا يستطيع الحاكم فيها أن يفعل ما يشـــاء بمصير القطـــر الذى يحكمة حكما فرديـــا . هنـــا يمكن أن يذهب الحاكم بقطـــره الى الوحـــدة مع

قطر آخر بدون عناء كثير . ولكن كثيرا من الوحدويين — ونحن منهم — لا يباركون الحكم الفردى ولا يشجعونه ولو من أجل الوحدة ، لانهم يعرفون العائد السلبى على ايمان الجماهير بالوحدة عندما تقترن بالاستبداد .

٤١ — ان القوميين ، أى الذين يحتفظون بكامل ولائهم للشعب العربى وحده ، لا يقبلون الوحدة العربية لوضع الشعب العربى كله موضع التبعية لاية قوة خارجية . ولا يقبلونها لانشاء امبراطورية من أجل امبراطور . ولا يقبلونها من أجل اجتماع الفقراء المتخلفين فى دولة التخلف والفقر . ولا يقبلونها من اجل ان يكون الشعب العربى كله عبيدا لمستبد واحد . لا . اننا نعرف تماما أن المستعمرين يتمنون لو انهم وحدوا الامة العربية تحت سيطرتهم ، وان كل حاكم فى دولة عربية يتمنى لو توحدت الامة العربية فى امبراطورية هو امبراطورها ، وان كثيرا ممن يدعون الى الوحدة لا يربطون بينها وبين التقدم والرخاء ، وأن أى مستبد يتمنى لو كان كل البشر عبيدا له . هذا كله معروف لا يجهله الا الذين ينخدعون بالدعوة الى الوحدة المجردة من مضامينها التحررية والتقدمية والديموقراطية . وليس القوميون من بين أولئك الجهلة . ان انتماءهم الى أمتهم وولاءهم لشعبها يحددان لهم هوية الوحدة التى يريدونها . انها الوحدة العربية من أجل تحرر وتقدم وسيادة الشعب العربى فى دولته القومية . وهى لن تكون كذلك ابدا الا اذا حققها الشعب العربى نفسه على ما يريد . ثم لماذا الوحدة فى قبضة الاستعمار ، أو فى اليأس من التقدم والرخاء ، او فى مذلة العبودية لمستبد ان كل هذا متوفر بأكثر مما يطيق الشعب العربى فى ظل التجزئة الاقليمية . ولا نقول الحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، بل نذكر ما قاله الله تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » (النساء : ٧٩) .

عند الشعب العربى اذن الجواب الصحيح على السؤال : كيف الوحدة العربية .

٤٢ — وليس مطلوبا من أية دولة عربية الا أن ترفع يد القهر عن الشعب العربى فيها ليقدم جوابه وينفذه . سيقدمه ان كان واعيا وحدة أمته ووحدة مصيرها . وسيقدمه استجابة لشعوره بالانتماء الى أمة واحدة . وسيقدمه من خلال الممارسة حينما يكتشف بنفسه ان مشكلات تحرر وتطوره وتقدمه مشكلات قومية موضوعيا فلن تحل الا بوسائل قومية لا توفرها الا دولة الوحدة . بل سيقدمها من خلال حتى فشل الدول العربية ذاتها فى الوفاء بوعود التحرر والرخاء والتقدم التى ينثرها حكامها . وسيتجه الى الوحدة مبتدئا من واقعه فيحققها فى ذاته أولا بالالتحام المنظم مع الشعب العربى فى الدول الاخرى وتجسيد هذا الالتحام فى منظمات قومية .

ليس قوميـــة المواثيق المكتوبة والشعارات الرنانة بل قومية التكوين والحركة . وبنـــاء حزبـــه القومى التقدمى الذى يقـــود الشعب العربى الوحدوى فى كل الدول فى مواجهة كل الدول الى أن يلغى دولتين على الاقـــل فيقيم دولة الوحدة النواة . دولة العرب . ثم — وهذا على أكبر قـــدر من الاهمية — يزحف وحدويا ولا يتوقف مهما طال الزمان الى أن تتحقق الوحدة العربية ديموقراطيا .

ديمقراطيـــا ؟

نعم ديموقراطيا . اذ الديمقراطيـــة هى أسلوب الشعوب فى تحقيق أهدافها أما أسلوب الغـــاء الدول الاقليمية لحساب دولة الوحدة النـــواة أو الشـــاملة فهذا متـــروك لحكامها وما اذا كانـــوا سيخضعون لارادة الشعب أم يقاومونه . ان خضعوا كما فعل عبـــد الناصر والقوتلى عام ١٩٥٨ فلا مشـــكلة وان قاوموا فسيكونوا هم المســئولين عن اى أسلوب يلجأ اليـــه الشعب من أجل تحقيق الوحـــــدة .

٤٣ — هل هذا ممكن ؟ نعم ممكن موضوعيا . ولكن الدول الاقليمية هى التى تحول بين الشعب العربى وبينه بالرغم من أنـــه سلمى واصلاحى أيضـــا . وهكذا تدفـــع الدول الاقليمية الشـــعب العربى دفعـــا ، وتلجئـــه الجـــاء ، وتحرضـــه تحريضا ، على ان يســـلك الى وحدتـــه طريـــق الثورة العربيـــة الشـــاملة : وحديث الثورة العربية الشاملة لا يهم الا القادرين عليها وبالتالى لا يفيـــد احـــدا فى حديث موجه الى الكافـــة فلنتركه لاصحاب الحق فيه .

٤٤ — الخلاصة انـــه اذا كانت مصر تريد أن تحرر ارادتها من التردد بين المحدد الجغرافى الاقليمى والمحدد التاريخى القومى ، وتحافظ على وحـــدة طاقاتها فلا تبددها ، وتلعب دورا استراتيجيا فى الوطن العربى فلنترك للشعب العربى فيها حريـــة « العمل » من أجل تحقيق الوحدة العربية ولو احتراما لدستور مصر الذى حمل الشعب ، وليس الحكومة ، مســئولية العمل على تحقيقهـــا فى مادتـــه الاولى . واذا صح ما يقـــال من أن رحلة الالف ميـــل تبدأ بخطـــوة وكانت الوحدة العربية كشرط لقيام مصر بدور استراتيجى فى العالم العربى يتفق مع كونها جـــزءا من الامة العربية هدفـــا بعيدا ، وهو بعيد فعلا ، فان الخطوة الاولى اليه ممكنـــة بقدر ما هى لازمـــة . انها حريـــة الشعب فى أن يفرض ارادته ويحقق مصيره . انهـــا الديموقراطيـــة .

وكما يصدق كل هذا على مصر يصدق على كل قطر عربى . ولكن ميزه انه حتى فى ظل الديموقراطيـــة لن يستطيع أى شعب عربى فى قطر واحــد أن يخطـــو وحـــده نحو الوحـــدة ولو كان الشعب العربى فى مصر . ومن هنا نعرف أن تحقيق دور قومى لمصر فى الوطن العربى ليس مســئولية دولتهـــا ، ولا حكومتها ولا حتى الشعب العربى فيها وحـــده ، بل مســـئولية الشعب العربى فى كل الاقطـــار . وما كان لمصر الدولة أن تكون اقليمية الا لان الوطن العربى مقســـم الى دول اقيلمية بدون فائض قومى ومن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر .